دروس وعبر من سورة السجدة

د. محمد بن حمد بن عبدالله المحيميد

- عضو هيئة التدريس بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة القصيم .
- حصل على درجة الماجستير من كلية أصول الدين بالرياض جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بأطروحته (غريب القرآن بين كتابي المفردات للراغب الأصفهاني وعمدة الحفاظ للسمين الحلبي)
- حصل على درجة الدكتوراه من كلية أصول الدين بالرياض جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بتحقيق كتاب (تفسير البسيط للواحدي – سورتي النساء والمائدة) .

مقدمة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .

أما بعد :

فإن أهم ما اشتغل به بحثاً وتعلماً واستنباطاً كتاب الله عز وجل الذي لا تنقضي عجائبه ولا تنتهي حكمه وفوائده (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته) .

لذا فقد توجهت همتي إلى نوع من التفسير الموضوعي وحول سورة من سور القرآن العظيمة ، وهي سورة تتلى في فجر كل جمعة ويسمعها مرتادو المساجد كل أسبوع على الأقل ، ألا وهي سورة (ألم – تنزيل) السجدة تلك السورة التي تنوعت مقاطعها ، حيث فيها التذكير بالمبدأ والمعاد والبشارة والإنذار وبيان ما وعد الله به المتقين وما توعد به المجرمين الفاسقين مع ضرب الأمثلة للعبرة والعظة .

وكان مسلكي حول هذه السورة موضوعياً حيث قسمت هذا البحث إلى مباحث بحسب مقاطع السورة وسياقها مبيناً ما فيها من العظة والعبرة .

أما منهج البحث فقد اتبعت ما هو متبع في البحوث العلمية المعاصرة من عزو للآيات وتخريج للأحاديث والآثار ونسبة للأقوال والنقول ونحو ذلك، مع مراعاة لعلامات الترقيم ووضع فهرس للبحث يرشد لما فيه .

وكانت خطة البحث على النحو التالي :

المقدمة : عن أهمية الموضوع وسبب اختياره والمنهج في بحثه .

المبحث الأول : (بين يدي السورة) وفيه :

١-فضل سورة ألم السجدة .

٢- المقاصد العامة للسورة .

٣- إيراد القراءات وبيان الغريب .

المبحث الثاني : (تنزيل القرآن ومحاجة المشركين) وفيه :

١- تنزيل القرآن من حكيم حميد .

٢- الاحتجاج بخلق السماوات والأرض على الألوهية .

٣- التذكير بخلق أصل بني آدم .

المبحث الثالث : (إثبات المعاد ليوم الجزاء والحساب) وفيه :

١-إنكار المشركين للبعث .

٢- تكذيبهم وإقامة الحجة عليهم .

٣- ندم المجرمين يوم الدين .

٤- الوعيد الشديد للمكذبين والمعاندين .

المبحث الرابع : (مدح أهل الإيمان وبيان عملهم وجزاؤهم) وفيه :

١- خضوع المؤمنين لمولاهم بالسجود (وأحكام سجود التلاوة) .

٢- أعمالهم الصالحة (قيام الليل - الدعاء - الخوف والرجاء- الإنفاق) .

٣- ما أعده الله لهم من قرة العين

المبحث الخامس : (الفرق بين الفريقين) وفيه :

١-عدم الاستواء .

٢- جزاء الفاسقين .

٣- تأبيد الخلود في نار جهنم .

المبحث السادس : (الإشارة إلى قصة موسى عليه السلام) وفيه :

١-إيتاؤه الكتاب .

٢- أهمية الصبر في الدعوة إلى الله عز وجل .

٣- منزلة اليقين في الدين .

المبحث السابع : (أدلة مشاهدة على إمكانية البعث) وفيه :

١- توالي القرون والأجيال .

٢- إحياء الأرض الميتة بالمطر .

الخاتمة : (ختام السورة) وفيه :

١- سفه المشركين باستعجال العذاب .

٢- تهديد المعاندين مع إمهالهم .

هذا وأسأل الله أن ينفعني وإخواني المسلمين بهذا البحث إنه سميع مجيب .

المبحث الأول
بين يدي السورة

ويشتمل على :

١- فضل سورة (ألم - السجدة)

٢- المقاصد العامة للسورة .

٣- إيراد القراءات وبيان الغريب .

١- فضل سورة (ألم - السجدة) :

سورة (ألم - السجدة) سورة عظيمة ولها خصائص متعددة ، وقد جاء في فضلها أحاديث عن النبي ﷺ ، وآثار عن بعض الصحابة الكرام - رضي الله عنهم - ترتقي إلى حكم المرفوع ، ومن ذلك :

١- ما في الصحيحين من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : " كان النبي ﷺ يقرأ في الفجر يوم الجمعة (ألم تنزيل) السجدة و (هل أتى على الإنسان) [(١)] .

قال البقاعي - رحمه الله - : " وسر ذلك أن في كل من السجدة ... والإنسان ذكر ابتداء الخلق ، والبعثة ، والجنة ، والنار ، فهي مذكرة بخلق آدم عليه السلام فيه ،وقيام الساعة فيه ، إلى غير ذلك من أحوال الآخرة "[(٢)] .

٢- ما ورد عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - قال : " كان النبي ﷺ لا ينام حتى يقرأ (ألم تنزيل) السجدة ، و (تبارك الذي بيده الملك) " [(٣)] .

وهذا يدل على منزلة هذه السورة وعناية النبي ﷺ بها ، حيث يتعاهد قراءتها كل ليلة قبل أن ينام لعظمها وأثرها .

وهو دال على استحباب قراءتها قبل النوم .

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب سجود القرآن / باب ٢ سجدة تنزيل السجدة ٢/ ٣٢ ، ومسلم في كتاب الجمعة / باب١٧ ما يقرأ في يوم الجمعة ٢/ ٥٩٩ حديث (٦٦) .

(٢) مصاعد النظر ٢/ ٣٦٥ .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده كما في الموسوعة الحديثية ٢٣/ ٢٦ رقم ١٤٦٥٩ وصححه المحققون بمجموع طرقه ، كما أخرجه الترمذي في فضائل القرآن باب ٩ ما جاء في فضل سورة الملك ٥/ ١٦٥ رقم ٢٨٩٢ ، والدارمي في فضائل القرآن / باب ١٩ في فضل سورة تنزيل السجدة ٢/ ٣٢٧ والحاكم ٢/ ٤١٢ .

٢- المقاصد العامة لسورة السجدة :

هذه السورة مكية بأكملها أو بمعظمها - على خلاف بين الصحابة والتابعين -[١] .

فهي تعنى بجانب العقيدة من بعث الإيمان في النفوس ، والتذكير بالمبدأ والمعاد ، ووعد المؤمن المطيع ، وتوعد المعاند المتكبر .

قال البقاعي : " ومقصودها : إنذار الكفار بهذا الكتاب ، السار للأبرار بدخول الجنة والنجاة من النار ، واسمها السجدة منطبق على ذلك بما دعت إليه آياتها من الأخبار وترك الاستكبار ، فالسورة كسائر السور المكية تعالج أصول العقيدة وتجعل منها مادتها الأصلية وموضوعها الأساسي ، حيث تعرض ذلك في عدة مقاطع مترابطة كالتالي :

فأولاً : تبدأ السورة بالأحرف المقطعة " ألم " تنبيهاً إلى أن القرآن في تنزله من جنس هذه الأحرف ونفي الريب عن كونه وحياً من رب العالمين .

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿٣﴾ ﴾[٢] .

ثم تعرض السورة قضية الألوهية ودلائل الوحدانية ماثلة في عظمة قدرة الله سبحانه في هذا الوجود وخلق السماوات والأرض وما بينهما ، وفي الهيمنة على هذا الكون ، ثم نشأة الإنسان وأطوار خلقه : خلقاً بعد خلق ، وما وهبه الله من السمع والبصر والإدراك ! .

ثم تعرض قضية البعث والجزاء ، وشك المشركين في تلك القضية وإنكارهم لوقوعها ، والرد على هذا الشك بصيغة الجزم واليقين ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ﴿١١﴾ ﴾[٣] .

---

(١) انظر : الجامع للقرطبي ١٤/ ٨٤ ، ومصاعد النظر ١/ ٣٥٩ ، ٣٦٠ .

(٢) سورة السجدة : الآية (١ - ٣) .

(٣) سورة السجدة : الآية (١٠ - ١١) .

ولتأكيد هذه القضية في نفوس المرتابين يجيء في ثنايا السورة مشهد من مشاهد القيامة تعرض فيه صورة حية لأولئك المكذبين وهم يعلنون يقينهم بيوم الحساب! ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾[1] .

وبجانب هذه الحالة الكئيبة تأتي حالة ضدها حيث تعرض السورة لما أعده الله للمؤمنين الساجدين العابدين

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾[2] .

ثم بعد هذا وذاك ترد إشارة سريعة إلى قصة موسى عليه السلام لتسلية قلب النبي قلت النبي – ﷺ – وأتباعه الدعاة للتمسك بالصبر في سبيل الدعوة ونجاحها .

ثم تختم السورة بذكر مقولة سفيهة للمشركين المتكبرين ﴿ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾[3] . أي متى يوم البعث والعذاب الذي يتحقق فيه الوعيد ؟!

وتوجيه الرسول ﷺ إلى الإعراض عنهم وتركهم لمصيرهم المحتوم[4] .

٣- إيراد القراءات وبيان الغريب :

أولاً : القراءات في سورة السجدة :

أقتصر هنا على إيراد القراءات الصحيحة المتواترة ،دون ما عداها مما يذكره بعض المفسرين ،وهي :

١ – قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿٧﴾ ﴾[5] .

قرأ ابن كثير ، وابن عامر ، وأبو عمر : (خلْقَهُ) بإسكان اللام .

---

(١) سورة السجدة : الآية (١٢) .

(٢) سورة السجدة : الآية (١٧) .

(٣) سورة السجدة : الآية (٢٨) .

(٤) انظر : الظلال ٦/ ٥٠٤-٥٠٦ ، وحاشية مصاعد النظر ٢/ ٣٦٢ .

(٥) سورة السجدة : الآية (٧) .

وقرأ نافع وعاصم ، وحمزة ، والكسائي : (خَلَقَهُ) بفتح اللام [1] .

فعلى القراءة الأولى (خلقه) الكلمة منصوبة على أنها مصدر المعنى : ألهم خلقه ما يحتاجون إليه ، وعلى القراءة الثانية الكلمة فعل ، أي أحسن كل شيء خلقه فأحكمه [2] .

٢- قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۢۚ ﴿١٠﴾ ﴾ [3] .

هذه الآية اجتمع فيها همزتا استفهام ، وقد اختلف القراء في مثلها في جميع مواضع القرآن .

قال الإمام ابن مجاهد - رحمه الله - : " (اجتماع استفهامان) :

اختلفوا في الاستفهامين يجتمعان ، فاستفهم بهما بعضهم ، واكتفى بعضهم بالأول من الثاني ، فمن استفهم بهما جميعاً عبد الله بن كثير ، وأبو عمر ، وعاصم في رواية أبي بكر وحمزة ، فكانوا يقرؤون (ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ... أئنكم لتأتون) .

و ﴿ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ ﴿٥﴾ ﴾ [4] . وما كان مثله في كل القرآن .

غير أنهم اختلفوا في الهمز ، فهمز عاصم همزتين ، وكذا حمزة ، ولم يهمز ابن كثير وأبو عمر إلا واحدة .

وممن اكتفي بالاستفهام الأول من الثاني نافع والكسائي ، فكانا يقرآن (أإذا كنا ترابا إنا لفي خلق جديد) و﴿ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [5] . وما كان مثله في القرآن كله ..." [6] .

---

(١) السبعة لابن مجاهد ص ٥١٦ ، والتيسير لأبي عمرو الداني ص ١٧٧ ، والنشر في القراءات العشر ٢/ ٣٤٧ .

(٢) انظر : حجة القراءات ص ٥٦٨ ، ٥٦٩ .

(٣) سورة السجدة : الآية (١٠) .

(٤) سورة الرعد : الآية (٥) .

(٥) سورة الصافات : الآية (١٦) ، سورة الواقعة : الآية (٤٧) .

(٦) السبعة ص ٢٨٥ ، وانظر النشر ١/ ٣٧٣ ، ٢/ ٣٤٧ .

هذا على سبيل العموم ، أما بخصوص هذه الآية فقال ابن مجاهد : " قرأ ابن عامر : إذا ضللنا ، مكسورة الألف (أإنا لفي) بهمزتين والاستفهام ، وقد بين قبل هذا " [(١)] .

فكأن ابن عامر اكتفى بالثانية من الأولى خلاف ما عليه الأكثرون ممن يكتفي بالأولى من الثانية.والله أعلم .

٣- قوله تعالى : ﴿ لَأَمْلَأَنَّ ﴿١٣﴾ ﴾
جاء تسهيل الهمزة الثانية عن ورش من طريق الأصبهاني خلافاً للجمهور [(٢)] .

٤- قوله تعالى : ﴿ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم ﴿١٧﴾ ﴾ [(٣)] .
قرأ يعقوب وحمزة بإسكان الياء ، وقرأ بقية العشرة بفتحها [(٤)] .
فعلى القراءة الأولى يكون الفعل مستقبلاً أي أن الله – عز وجل – يخبر عن نفسه ما أخفى لهم ، وعلى الثاني يكون الفعل ماضياً على ما لم يسم فاعله [(٥)] .

٥- قوله تعالى : ﴿ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ [(٦)] .
كلمة المأوى بهمز ساكن بعد متحرك بالفتح ، فالقراء يهمزون في مثله ، وخالف أبو جعفر في ذلك بإبدال الهمزة حرف مد ، فقرأ (الماوى) [(٧)] .

٦- قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ ﴿٢٤﴾ ﴾ :
حقق الهمزتين ابن عامر ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي ، وخلف ، وروح ، وسهل الثانية فيها الباقون ، وهم نافع ، وأبو عمرو ، وابن كثير ، وأبو جعفر، ورويس، وانفرد ابن مهران عن روح بتسهيلها مع من سهل [(٨)] .

---

(١) السبعة ص ٥١٦ ، وانظر النشر ١/ ٣٧٣ .
(٢) انظر : النشر ١/ ٣٩٨ ، ٢/ ٣٤٧ .
(٣) سورة السجدة : الآية (١٧) .
(٤) انظر : السبعة ص ٥١٦ ، والتيسير ص ١٧٧ ، والنشر ٢/ ٣٤٧ .
(٥) انظر : حجة القراءات ص ٥٦٩ .
(٦) سورة السجدة : الآية (١٩) .
(٧) انظر : النشر ١/ ٣٨٨ .
(٨) النشر ١/ ٣٧٨ .

أما كيفية قراءة التسهيل في قراءة الهمزة الثانية هنا ، فقال ابن الجزري : " ذهب الجمهور من أهل الأداء إلى أنها تجعل بين بين ، كما هي في سائر باب الهمزتين من كلمة ، وبهذا ورد النص عن الأصبهاني عن أصحاب ورش فإنه قال (أئمة) بنبرة واحدة وبعدها إشمام الياء ...

وذهب آخرون منهم إلى أنها تجعل ياء خالصة ، نص على ذلك أبو عبدالله بن شريح [1] في كافيه ، وأبو العز القلانسي [2] في إرشاده ، وسائر الواسطيين ، وبه قرأت من طريقهم [3] .

٧- قوله تعالى : ﴿ لَمَّا صَبَرُوا ۖ ﴿٢٤﴾ ﴾ :

" قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وعاصم : (لَمّا) مشددة مفتوحة اللام .

وقرأ حمزة والكسائي : (لِمَا) مكسورة اللام خفيفة الميم [4] .

فعلى القراءة الأولى يذكر الله – عز وجل – المجازاة على صبرهم حيث جعلهم أئمة ، وعلى الثانية تكون الباء للسببية أي جعلناهم أئمة لصبرهم [5] .

ثانياً : يبان الغريب في مفردات السورة

١ – قوله تعالى : ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ لَا رَيْبَ ﴿٢﴾ ﴾ .

الريب : الشك أو القلق [6] .

قال الراغب في بيانه : " الريب أن تتوهم بالشيء أمراً فينكشف عما تتوهمه " [7] .

---

(١) لم أقف على ترجمته .

(٢) هو : الإمام الكبير محمد بن الحسين بن بندار الواسطي ، القلانسي ، من شيوخ القراء، وممن صنف فيها: إرشاد المبتدي في تذكرة المبتدي في القراءات ، ولد سنة ٤٣٥ ، وتوفي سنة ٥٢١ .انظر:سير أعلام النبلاء ١٩/ ٤٩٦– ٤٩٨ ومعجم المؤلفين ٩/ ٢٣٦ .

(٣) النشر ١/ ٣٧٨، ٣٧٩ .

(٤) السبعة ص ٥١٦ ، وانظر التيسير ص ١٧٧ ، والنشر ٢/ ٣٤٧ .

(٥) انظر : حجة القراءات ص ٥٦٩ .

(٦) انظر : المفردات ص ٢٠٥ (ريب) ، وتحفة الأريب بما في القرآن من الغريب ص ١٣٣

(٧) المفردات ص ٢٠٥ (ريب) .

٢- قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾ :

معنى " أم " هنا : بل ، أي : بل يقولون افتراه [١] .

واستشهد أبو عبيدة بقول الأخطل :

"كذبتك عينك أم رأيت بواسط ٠٠٠ غلس الظلام من الرباب خيالا[٢] "

ومعنى (افتراه) أي : " تكذّبه ، واخترقه ، وتخلقه من قبل نفسه [٣] .

٣- قوله : ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ ﴿٣﴾ ﴾ :

ما هنا بمعنى النفي ، أي لم يشاهدوا هم نبياً ، وإن كانت الحجة قائمة بما تقدم من رسل الله عليهم السلام [٤] .

٤- قوله : ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ﴾ :

يدبر الأمر : أي يقضي القضاء .

من السماء إلى الأرض : أي ينزله من السماء إلى الأرض [٥] .

يعرج : أي يصعد [٦] ، وقيل : ينزل ويصعد [٧] .

قال الراغب : " العروج ذهاب في صعود ... والمعارج المصاعد " [٨] .

في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون :

---

(١) انظر : مجاز القرآن ٢/ ١٣٠ ، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج ٤/ ٢٠٣ ، وتذكرة الأريب في تفسير الغريب ص ٧٧ .

(٢) مجاز القرآن ٢/ ١٣٠ . والبيت في ديوان الأخطل ص ٢٤٥ .

(٣) مجاز القرآن ٢/ ١٣٠ ، وانظر المفردات ص ٣٧٩ ، وتذكرة الأريب ص ٧٧ .

(٤) انظر : معاني القرآن للزجاج ٤/ ٢٠٤ .

(٥) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص ٢٤٦ .

(٦) المرجع السابق .

(٧) انظر : مجاز القرآن ٢/ ١٣٠ ، ومعاني الزجاج ٤/ ٢٠٤ .

(٨) المفردات ص ٣٢٩ .

قيل إنه يوم من أيام الدنيا لكن الملك في نزوله وصعوده قد قطع في ذلك اليوم مسافة ألف سنة من مسيرة الآدمي [١] .

وقيل : إن هذا المقدار على ظاهره وهذا اليوم مقداره ألف سنة من أيام الدنيا [٢] .

واللفظ محتمل للقولين ، وهذا من بلاغة القرآن العظيم .

٥- قوله : ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥ ۝٧ ﴾ :

أي أحكم خلقه ،فخلق الإنسان في أحسن تقويم ، وخلق بقية الكائنات على ما أراد في نظام حسن محكم [٣] .

قال أبو عبيدة : " أحسن خلق كل شيء ، والعرب تفعل هذا ، يقدمون ويؤخرون [٤] .

٦- قوله : ﴿ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ﴾ :

" يعني آدم وذريته ، فآدم خلق من طين " [٥] .

٧- قوله : ﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ﴾ :

النسل في الأصل : الانفصال عن الشيء ، يقال : نسل الوبر عن البعير والقميص عن الإنسان .

والمراد به هنا الولد لكونه ناسلاً ومنفصلاً عن أبويه [٦] .

والسلالة في اللغة ما يسل من الشيء القليل [٧] .

ولعل المراد بها هنا النطفة من الماء يصور منه ابتداء خلق الإنسان [٨] .

ومعنى المهين : الضعيف [٩] .

---

(١) انظر : تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص ١٤٦ ، والطبري ٢١/ ٩١ ، وتذكرة الأريب ص ٧.
(٢) انظر : الطبري ٢١/ ٩٢ ، ومعاني الزجاج ٤/ ٢٠٤ .
(٣) انظر : معاني الزجاج ٤/ ٢٠٤ ، وتذكرة الأريب ص ٧٨ .
(٤) مجاز القرآن ٢/ ١٣٠ .
(٥) معاني الزجاج ٤/ ٢٠٥ .
(٦) انظر : المفردات ص ٤٩١ (نسل) .
(٧) انظر : معاني الزجاج ٤/ ٢٠٥ ، وتحفة الأريب ص ١٦٨ .
(٨) انظر : المفردات ص ٢٣٧ .
(٩) معاني الزجاج ٤/ ٢٠٥ .

٨- قوله : ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ ﴿١٠﴾ ﴾ :
الضلال هنا ليس معناه ما يتبادر إلى الأذهان من التيه عن الحق ، وإنما معناه : ذهبنا في الأرض وبطلنا وصرنا تراباً بعد الموت والبلى ، يقال : ضل الماء في اللبن ، إذا غلب عليه اللبن فأخفاه [١] .

٩- قوله : ﴿ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ ﴿١٠﴾ ﴾ :
هذا : " استفهام إنكار " [٢] .
وهذا دال على سفه الكفار وشدة جهلهم بربهم وبالغ غيهم .

١٠- قوله : ﴿ ۞ قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ﴿١١﴾ ﴾ :
يتوفاكم : من التوفي والاستيفاء وتوفية العدد .
ومعناه : يقبض أرواحكم جميعاً ، فيستوفي الكل دون نقص أي أحد ، كما يقال : استوفيت من فلان وتوفيت منه ، إذا استكملت حقك ومالك منه [٣] .
ومعنى (وكل بكم) أي : " بقبض أرواحكم " [٤] .

١١-قوله : ﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ ﴿١٢﴾ ﴾ :
قال الزجاج : " هذا متروك الجواب ، وخطاب النبي ﷺ خطاب الخلق . الدليل على ذلك: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴿١﴾ ﴾ [٥] فهو بمنزلة : ولو ترى .
فالجواب : لرأيتم ما يعتبر به غاية الاعتبار " [٦] .
ومعنى (ناكسوا رؤوسهم) : " مطأطئوها حياء وندماً " [٧] .

---

(١) انظر : تفسير غريب القرآن ص ٣٤٦ ، ومعاني الزجاج ٤/ ٢٠٥ ، وتذكرة الأريب ص ٧٨ .
(٢) تذكرة الأريب ص ٧٨ .
(٣) انظر : مجاز القرآن ٢/ ١٣١ ، وتفسير غريب القرآن ص ٣٤٦ ، ومعاني الزجاج ٤/ ٢٠٥ .
(٤) تذكرة الأريب ص ٧٨ .
(٥) سورة الطلاق الآية (١) .
(٦) معاني الزجاج ٤/ ٢٠٦ .
(٧) تذكرة الأريب ص ٧٨ .

١٢- قوله : ﴿ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا ﴾ :
" فيه إضمار (يقولون) ربنا أبصرنا " [١] .

١٣- قوله : ﴿ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمۡۖ ﴾ :
النسيان هنا بمعنى الترك أي فذوقوا العذاب بسبب ترككم الطاعة والعمل للقاء يومكم هذا ، فتركناكم من الرحمة [٢] .
والنسيان في اللغة يأتي بمعنى الترك .
" قال النابغة :
كأنه خارجاً من جنب صفحته ٠٠٠ سفود شرب نسوه عند مفتأد
أي تركوه [٣] " .

١٤- قوله : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ ﴾ :
عامتهم على أن معنى " تتجافى " ترتفع [٤] .
وقيل : تفارق ، وقيل تنحّى [٥] .
وهي متقاربة في المعنى .
والمراد أن ينهضون من فرشهم وأماكن اضطجاعهم ونومهم لمناجاة ربهم والوقوف بين يديه سبحانه .

١٥- قوله : ﴿ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا ﴾ :
" خوفاً من عذاب الله ، وطمعاً في رحمة الله .
وانتصاب " خوفاً " " وطمعاً " لأنه مفعول له ، وحقيقته أنه في موضع المصدر فهو في تأويل : يخافون خوفاً ويطعمون طمعاً " [٦] .

---

(١) معاني الزجاج ٤/ ٢٠٦ .
(٢) انظر : مجاز القرآن ٢/ ١٣٢ ، معاني الزجاج ٤/ ٢٠٦ ، وتذكرة الأريب ص ٧٨ .
(٣) مجاز القرآن ٢/ ١٣٢ .
(٤) انظر : مجاز القرآن ٢/ ١٣٢ ،وتفسير غريب القرآن ص ٢٤٦ ، ومعاني الزجاج ٤/ ٢٠٧، وتذكرة الأريب ص ٧٨ .
(٥) انظر : مجاز القرآن ٢/ ١٣٢ ، ومعاني الزجاج ٤/ ٢٠٧ .
(٦) معاني الزجاج ٤/ ٢٠٧ .

قال الزجاج بعد ذلك : " وقد اختلف في تفسيرها ، وأكثر ما جاء في التفسير أنهم كانوا يصلون في الليل وقت صلاة العتمة لا ينامون عنها ......" [١] .

هذا وإن كان الظاهر أنها صلاة الليل ، خاصة في آخره كما قال عزَّ وجل بعد هذه الآية :

١٦ - ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴿١٧﴾ ﴾ :

فهذا يدل على أن هذه الصلاة وهذا الدعاء في جوف الليل ؛ لأنه من الأعمال التي تأخذ طابع السر عادة فجعل لفظ يجازي بـ (أخفي) [٢] ، فجاء التعبير في الجزاء بلفظ بدل على الخفاء في مقابل خفاء العمل.

وهذه نكتة بلاغية .

وقرة العين : ما يحصل به السرور ، وأصله من القر وهو البرد ، يقال : قرت عينه ، أي بردت وصحت ، وقيل لأن للسرور دمعة باردة قارة ، كما أن للحزن دمعة حارة [٣] .

١٧ - قوله : ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ ﴾ :

الفسق في الأصل : الخروج عن حجر الشرع ، ويقع بقليل الذنوب وكثيرها، لكن تعورف فيما كان كثيراً . ويطلق الفسق على الكفر وعلى ما دونه [٤] .

ويحتمل أن يراد بالفاسق هنا الكافر ؛ لأنه أتى بمقابلة المؤمن ولا مانع من أن يدخل في اللفظ ما دون الكفر من كبائر الذنوب .

وأتى الفعل (لا يستوون) بالجمع ولم يأت بالتثنية (لا يستويان) ؛ لأن (مَن) لفظها لفظ الواحد وهي تدل على الواحد وعلى الجمع ،فجاء (لا يستوون) على معنى: لا يستوي المؤمنون والكافرون [٥] .

---

(١) المرجع نفسه .
(٢) انظر : معاني الزجاج ٤/ ٢٠٧ .
(٣) انظر : المفردات ص ٣٩٨ (قر) .
(٤) انظر : المفردات ص ٣٨٠ (فسق) .
(٥) انظر : معاني الزجاج ٤/ ٢٠٨ .

١٨ - قوله : ﴿ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ :

المأوى مصدر أوى يأوي أويّاً ومأوىً ، تقول : أوى إلى كذا إذا انضم إليه ، يأوي أوياً ومأوى .

ومعناه اسم للمكان الذي يأوي إليه ويكون مصيره [(١)] .

والنُزُل : ما يقام للضيف [(٢)] .

فأهل الجنة لهم الكرامة من مولاهم تبارك وتعالى .

١٩ - قوله : ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ ﴿٢١﴾ ﴾ :

العذاب الأدنى في الدنيا والأكبر في الآخرة .

فالمصائب الدنيوية من الجدب ،والخوف ،والجوع ،والقتل ،ونقص الأنفس والأموال من الأدنى [(٣)] .

وقيل الأدنى : ما أصابهم يوم بدر [(٤)] .

والأول أعم وأولى ، فيدخل فيه الثاني ، والله أعلم .

٢٠ - قوله : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ﴿٢٣﴾ ﴾ :

المرية : الشك .

والضمير في لقائه ، إما أن يعود على موسى ، فالمعنى : من لقاء موسى.

وإما أن يعود على الكتاب ، أي : من لقاء موسى الكتاب ، بمعنى : من تلقيه له بالرضا .

والوجهان محتملان [(٥)] .

وقيل : " من لقاء الأذى كما لقيه موسى " [(٦)] .

(١) انظر : المفردات ص ٣٤ (أوى) .
(٢) تحفة الأريب ص ٢٩٨ .
(٣) انظر : معاني الزجاج ٤/ ٢٠٨ .
(٤) تحفة الأريب ص ٧٩ .
(٥) انظر : معاني الزجاج ٤/ ٢٠٩ ، وتذكرة الأريب ص ٧٩ .
(٦) تذكرة الأريب ص ٧٩ .

٢١- قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ﴿٢٤﴾ ﴾ :
أئمة جمع إمام ، وهو من يؤتم ويقتدي بقوله وفعله [١] .
ويهدون بأمرنا يدلون بما نقويهم وقوتنا [٢] .
والآية فيها حكاية المجازاة ، المعنى : لما صبروا على أمر الله بالعلم والدعوة جعلهم أئمة [٣] .

٢٢- قوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿٢٥﴾ ﴾ :
الفصل هو الحكم والقضاء وإبانة أحد الشيئين من الآخر [٤] .

٢٣- قوله : ﴿ الْأَرْضِ الْجُرُزِ ﴿٢٧﴾ ﴾ :
الغليظة اليابسة التي لا نبت فيها [٥] .

*****

(١) انظر : المفردات ص ٢٤ (أم) .
(٢) انظر : مجار القرآن ٢/ ١٣٣ .
(٣) انظر: معاني الزجاج ٤/ ٢١٠ .
(٤) انظر : المفردات ص ٣٨١ (فصل) .
(٥) انظر : مجاز القرآن ٢/ ١٣٣ ، ومعاني الزجاج ٤/ ٢١١ .

المبحث الثاني
تنزيل القرآن ومحاجة المشركين

ويشتمل على :

١ – تنزيل القرآن من حكيم حميد .

٢ – الاحتجاج بخلق السماوات والأرض على الألوهية .

٣– التذكير بخلق أصل آدم .

الآيات :

قال الله عزَّ وجل: ﴿ الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ۝٣ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا شَفِيعٍۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٤ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦ ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ۝٩ ﴾[١] .

١- تنزيل القرآن من حكيم حميد :

هذه السورة افتتحت بالحروف المقطعة ، فابتدئت بـ (ألم) ويقصد من هذه الحروف عند كثير من المحققين التحدي والإعجاز لأي أحد من البشر أن يأتي بمثل القرآن [٢]، ولذا فقد جاءت محاجة المشركين المكذبين وإثبات صدق ما جاء به محمد ﷺ من عند ربه بهذا الكتاب العزيز :

---

(١) سورة المائدة : الآيات (١–٩) .

(٢) انظر : الجامع لأحكام القرآن ١/ ١٥٥ ، وفتح القدير ١/ ٢٩ ، ٣٠ ، والتحرير والتنوير ١/ ٢١٢ .

﴿ الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ﴾

" لقد علم الناس أجمعون علماً لا يخالطه شك أن هذا الكتاب العزيز جاء على لسان رجل عربي أمي ... اسمه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله .

هذا القدر لا خلاف فيه بين مؤمن وملحد ؛ لأن شهادة التاريخ المتواتر به لا يماثلها ولا يدانيها شهادة لكتاب غيره ، ولا لحادث ظهر على وجه الأرض .

... فمن أين جاء به محمد بن عبد الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ؟!

أمن عند نفسه ومن وحي ضميره ؟

أم من عند معلم ؟ ومن هو ذلك المعلم ؟

نقرأ في الكتاب ذاته أنه ليس من عمل صاحبه ، وإنما هو ﴿ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ۝٢٠ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ۝٢١ ﴾ [(١)] .

ذلكم هو جبريل عليه السلام ، تلقاه من لدن حكيم عليم ، ثم نزله بلسان عربي مبين ، على قلب محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، فتلقنه محمد منه كما يتلقن التلميذ عن أستاذه نصاً من النصوص ، ولم يكن له فيه من عمل بعد ذلك إلا :

١- الوعي والحفظ / ثم

٢- الحكاية والتبليغ / ثم

٣- البيان والتفسير / ثم

٤- التطبيق والتنفيذ .

أما ابتكار معانيه وصياغة مبانيه فما هو منها بسبيل ،وليس له من أمرهما شيء (إن هو إلا وحي يوحى)[(٢)] .

ويؤكد ذلك ويبينه بياناً صريحاً أيضاً النصوص القرآنية التالية :

---

(١) سورة التكوير : الآيات (١٩-٢١) .

(٢) سورة النجم : الآية (٤) .

١ -قال تعالى: ﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ﴿٢٠٣﴾ ﴾ [(١)] .

٢ -قال تعالى: ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴿١٥﴾ ﴾ [(٢)] .

وفي صدر هذه السورة بين سبحانه أن هذا القرآن أنزل من عنده ونفى عنه الريب والشك (تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين) .

إن محمداً ﷺ مبلغ عن ربه هذا الكتاب ، وفي سيرته المطهرة أمثلة واضحة صادقة تدل على مبلغ صدقه وأمانته في تبليغ الوحي من ربه ، وأنه لم يكن ليأتي بشيء من تلقاء نفسه [(٣)] ومن ذلك :

١ - كان النبي ﷺ تنزل به النوازل وتلم به الشدائد ، من شأنها أن تحفزه إلى القول ومحاجة المكذبين والمبطلين ، وكان يحتاج معها أن يتكلم لو كان الأمر إليه مهما وجد إلى ذلك سبيلاً ! ولكن كانت تمر الليالي والأيام لا ينزل عليه قرآن يقرؤه على الناس .

ومن ذلك حادثة الإفك ، حيث وقع المنافقون في عرضه الشريف الطاهر ، وطال الأمر وخاض الناس ، واشتد الأمر عليه ﷺ وعلى أهله ولا يستطيع أن يقول إلا:"إني لا أعلم عنها إلا خيراً "[(٤)] .

ومضى شهر بأكمله والكل يقولون : ما علمنا عليها من سوء ولم يزد النبي ﷺ أن قال لها آخر الأمر:"يا عائشة بلغني كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ،وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله"[(٥)] .

هذا كلامه بوحي ضميره ككلام البشر الذي لا يعلم الغيب وكلام المتزن المتثبت لا يجري وراء الظن ولا يقول ما ليس به علم وما لبثوا حتى نزلت براءة أم المؤمنين - رضي الله عنها - في أول سورة النور .

(١) سورة الأعراف : الآية (٢٠٣) .
(٢) سورة يونس : الآية (١٥) .
(٣) النبأ العظيم ص ٢٠ .
(٤) أخرجه البخاري في كتاب التفسير (سورة النور) / باب ٦ لولا إذ سمعتموه ٦/ ٧.
(٥) أخرجه البخاري (نفس الكتاب والباب السابق) ٦/ ٨ .

فما الذي يمنعه – لو كان الأمر إليه – . أن يبرئ عائشة منذ البداية ولكنه الصادق المصدوق ﷺ ما كان ليصدق الناس ويكذب على ربه تبارك وتعالى [(١)] .

قال الله سبحانه : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧) ﴾ [(٢)] .

٢– ربما نزل الوحي على غير ما يحبه ويهواه ، فيخطئه في الرأي وأحياناً يأتيه العتاب من ربه تبارك وتعالى .

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ (١) ﴾ [(٣)] .

وقال تعالى : ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ (٣٧) ﴾ [(٤)] .

وقال تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣) ﴾ [(٥)] .

وقال سبحانه: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨) ﴾ [(٦)] .

وقال سبحانه : ﴿ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ (٥) فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ (٧) وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ (٨) وَهُوَ يَخْشَىٰ (٩) فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ (١٠) ﴾ [(٧)] .

فهل تصدر هذه التقريعات المؤلمة من وجدانه ؟

أكان يعلنها عن نفسه ؟ !

---

(١) انظر : النبأ العظيم ص ٢٣ ، ٢٤ .
(٢) سورة الحاقة : الآية (٤٤–٤٧) .
(٣) سورة التحريم : الآية (١) .
(٤) سورة الأحزاب : الآية (٣٧) .
(٥) سورة التوبة : الآية (١١٣) .
(٦) سورة الأنفال : الآية (٦٧ ، ٦٨) .
(٧) سورة عبس : الآية (٥–١٠) .

ولكنه الوحي من ربه ، لا يخفيه ولا يكتمه [1] .

﴿ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ [2] .

٣-" ولقد كان يجيئه الأمر أحياناً بالقول المجمل أو الأمر المشكل ، الذي لا يستبين هو ولا أصحابه تأويله حتى ينزل الله عليهم بيانه بعد !!

قل لي بربك : أي عاقل توحي إليه نفسه كلاماً لا يفهم هو معناه وتأمره أمراً لا يعقل هو حكمته ؟ !َ

أليس ذلك من الأدلة الواضحة على أنه ناقل لا قائل ؟ أو أنه مأمور لا آمر ؟! " [3] .

٤- كان ﷺ أول ما نزل الوحي يتلقفه متعجلاً ، فيحرك به لسانه طلباً لحفظه ولئلا يضيع منه شيء ، ولم يكن هذا من عادته ولا من عادة العرب ، فلو كان من تلقاء نفسه لما احتاج إلى ذلك .

لكنه كان حريصاً على المتابعة الحرفية حتى ضمن الله له حفظه وبيانه بقوله سبحانه: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ﴾ [4] .

وبقوله عزَّوجل: ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ [5] [6] .

هذا كله وغيره دال على صدق النبي ﷺ فيما جاء به من عند ربه من الوحي والقرآن ، فالله سبحانه وتعالى في صدر هذه السورة نفى عنه الشك (تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين) .

قال سيد قطب : " قضية مقطوع بها ، لا سبيل إلى الشك فيها ، قضية تنزيل الكتاب من رب العالمين ... ويعجل السياق بنفي الريب في منتصف الكلام بين المبتدأ والخبر ؛ لأن هذا هو صلب القضية ، والنقطة المقصودة في النص .

---

(١) انظر : النبأ العظيم ص ٢٥ .
(٢) سورة التكوير : الآية (٢٤) .
(٣) النبأ العظيم ص ٢٨ .
(٤) سورة القيامة : الآية رقم (١٦ ، ١٧ ، ١٨) .
(٥) سورة طه : الآية رقم (١١٤) .
(٦) انظر : النبأ العظيم ص ٣١ ، ٣٢ .

والتمهيد لها بذكر هذه الأحرف المقطعة يضع المرتابين الشاكين وجهاً لوجه أمام واقع الأمر ، الذي لا سبيل إلى الجدل فيه ...

إن كل آية وكل سورة تنبض بالعنصر المستكن العجيب المعجز في هذا القرآن ، وتشي بالقوة الخفية المودعة في هذا الكلام ، وإن الكيان الإنساني ليهتز ويرتجف ويتزايل ولا يملك التماسك أمام هذا القرآن ، كلما تفتح القلب ، وصفا الحس ، وارتفع الإدراك ، وارتفعت حساسية التلقي والاستجابة .

وإن هذه الظاهرة لتزداد وضوحاً كلما اتسعت ثقافة الإنسان ومعرفته بهذا الكون وما فيه ومن فيه ، فليست هي مجرد وهلة تأثرية وجدانية غامضة، فهي متحققة حين يخاطب القرآن الفطرة خطاباً مباشراً ، وهي متحققة كذلك حين يخاطب القلب المجرب والعقل المثقف والذهن الحافل بالعلم والمعلومات ... "[١] .

ومع كل ذلك فقد أبى الضالون إلا العناد والاستكبار ، واتهموا النبي ﷺ بالكذب والفرية ، حاشاه من ذلك كله .

(أم يقولون افتراه) :

قالوا ذلك تعنتاً وزعموه بهتاناً ، وقد جاء السياق هنا بصيغة المستنكر لأن يقال هذا القول أصلاً ، فتاريخ النبي ﷺ ينفي هذه الكلمة الظالمة من جهة ، وطبيعة هذا الكتاب من جهة أخرى [٢] .

ولهذا قال سبحانه راداً عليهم ومفنداً زعمهم :

(بل هو الحق من ربك) :

الحق لمطابقته لما في الفطرة من الحق ، وما في طبيعة الكون كله من هذا الحق الثابت المستقر المتناسق المطرد في نظامه الحق بترجمته لنواميس هذا الوجود الكبير ترجمة مستقيمة واقعية ، الحق بما يحققه من اتصال بين البشر الذين يرتضون منهجه وما يحققه بين قوى الكون كله من تلاق وسلام وتعاون .

الحق الذي تستجيب له الفطرة بيسر وسهولة دون عنت أو مشقة ، الحق الذي لا يختلف ولا يتعارض حين يرسم منهاج الحياة كاملة ، الحق الذي لا

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٥٠٦ ، ٥٠٧ .

(٢) انظر : الظلال ٦/ ٥٠٧ .

يظلم أحداً دنيا ولا أخرى ، ولا يظلم فكرة أو حركة في الحياة فيكفها عن الوجود والنشاط ما دامت متفقة مع الحق [١] .

الحق الذي يهدي للحق ويرسم طريق الحق ، ويحقق السعادة في الدارين للثقلين .

(بل هو الحق من ربك) :

" فما هو من عندك ، إنما هو من عند ربك ، وهو رب العالمين " [٢] .

وقد بين الله سبحانه الحكمة العظيمة من تنزيل كتابه العزيز بقوله : (لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون) .

فالحكمة هي الإنذار ، ولكي يخرج الناس من الظلمات إلى النور ، والناس بحاجة ماسة لذلك .

قال السعدي – رحمه الله – : " أنزله رحمة للعباد (لتنذر قوماً ما آتاهم من نذير من قبلك) أي في حالة ضرورة وفاقة لإرسال الرسول وإنزال الكتاب ، لعدم النذير ، بل هم في جهلهم يعمهون ، وفي ظلمة ضلالهم يترددون " .

فأنزلنا الكتاب عليك (لعلهم يهتدون) من ضلالهم ، فيعرفون الحق ويؤثرونه " [٣] .

وهؤلاء القوم من هم ؟

هل هم قريش ؟ أم أهل الفترة بين عيسى ومحمد ﷺ قولان للمفسرين [٤] ، كلاهما محتمل .

٢- الاحتجاج بخلق السماوات والأرض على الألوهية :

قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ﴾ [٥] .

---

(١) انظر : الظلال ٦/ ٥٠٧ ، ٥٠٨ .

(٢) الظلال ٦/ ٥٠٨ .

(٣) تيسير الكريم الرحمن ٦/ ١٧٧ .

(٤) انظر : الطبري (ط. دار الفكر) ٢١/ ٩٠ ، والقرطبي ١٤/ ٨٥ .

(٥) سورة السجدة : الآية (٤-٦) .

المكذبون بهذا القرآن من المشركين والمعاندين مقرون بأن الله خالقهم ورازقهم ومسخر لهم هذا الكون كما هو مثبوت في آيات كثيرة من هذا الكتاب العزيز ، وهذا شيء معروف لكل أحد .

وفي هذه الآيات الاحتجاج بخلق السماوات والأرض والإنسان على أن الله سبحانه هو المتفرد بالعبادة ، فالربوبية حجة على الألوهية .

قال سيد قطب - رحمه الله - حول هذه الآيات : " ذلك هو الله وهذه آثار ألوهيته ودلائلها ، هذه هي في صفحة الكون المنظور ، وفي ضمير الغيب المترامي وراء إدراك البشر المحدود ....

(الله الذي خلق السماوات والأرض) :

والسماوات والأرض وما بينهما هي هذه الخلائق الهائلة التي نعلم عنها القليل ونجهل عنها الكثير . هي هذا الملكوت الطويل العريض الضخم المترامي الأطراف ، الذي يقف الإنسان أمامه مبهوراً مدهوشاً متحيراً في الصنعة المتقنة الجميلة المنسقة الدقيقة التنظيم ، هي هذا الخلق الذي يجمع إلى العظمة الباهرة الجمال الأخاذ ، الجمال الحقيقي الكامل ، الذي لا يرى فيه البصر ولا الحس ولا القلب موضعاً للنقص ، ولا يمل المتأمل المتطلع إليه مهما طالت وقفته ولا يذهب التكرار والألفة بجاذبيته المتجددة العجيبة ، ثم هي هذه الخلائق المتنوعة المتعددة الأنواع ، والأجناس ، والأحجام ، والأشكال ، والخواص ، والمظاهر والاستعدادات ، والوظائف الخاضعة كلها لناموس واحد ، المتناسقة كلها في نشاط واحد المتجهة كلها إلى مصدر واحد ، تتلقى منه التوجيه والتدبير ، وتتجه إليه بالطاعة والاستسلام !!

والله هو الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما ، فهو الحقيق - سبحانه - بهذا الوصف العظيم " [(١)] .

وقوله تعالى : ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾:

فيه هز للنفوس والضمائر ، ومعناه : " أيها العابدون غيره المتوكلون على من عداه ، تعالى وتقدس وتنزه أن يكون له نظير أو شريك ، أو وزير ، أو نديد ، أو عديل ، لا إله إلا هو ولا رب سواه " [(٢)] .

(١) الظلال ٦/ ٥٠٩ .

(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ٤٠٥ ، وانظر أيسر التفاسير ٤/ ٢٢٣ .

ويمضي السياق في تقرير التوحيد وإفراد الباري المدبر سبحانه بالعبادة ، حيث يقول الحق تبارك وتعالى : (يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون) .

أي يدبر أمر المخلوقات ويقدرها ، فينزل الأمر من السماء إلى الأرض ، حيث تتم الحياة ، والموت ، والصحة ، والمرض ، والعطاء ، والمنع ، والغنى ، والفقر ، والسلم ، والحرب ، والعز ، والذل [1] .

فمدير هذه الأمور هو الحكيم العليم بكل شيء .

(ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم) :

فهو المستحق للعبادة وحده دون سواه ، حيث هو سبحانه : " العزيز الذي قد عز كل شيء فقهره وغلبه ، ودانت له العباد والرقاب ، الرحيم بعباده المؤمنين ، فهو عزيز في رحمته ، رحيم في عزته ، وهذا هو الكمال ، العزة مع الرحمة والرحمة مع العزة فهو رحيم بلا ذل " [2] .

تبارك وتعالى من إله عظيم .

٣- التذكير بخلق أصل بني آدم :

قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلًا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ .

ربنا سبحانه وتعالى أبدع المخلوقات ، فهو سبحانه ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ﴿١١٧﴾ ﴾ [3] . أتقن كل شيء وأحكمه ، ومن ذلك الإنسان .

قال -عزَّ وجل -: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ ﴾ [4] .

(١) انظر : أيسر التفاسير ٤/ ٢٢٤ .
(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ٤٠٦ .
(٣) سورة البقرة : الآية (١١٧) .
(٤) سورة الانفطار : الآية (٦ ، ٧) .

وقال سبحانه : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [(١)] .

بل إن الله بفضله وإحسانه ميز بني آدم عن غيرهم من المخلوقات بحسن هيئتهم وتكوينهم ومنحهم العقول والألباب كما يفهم من عموم قوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [(٢)] .

وفي هذه الآيات يذكر الله – عزَّ وجل – البشر – عموماً ، بمنة امتنها عليهم ، وهي أن جعل أصل خلقهم من طين بأن خلق أباهم آدم – عليه السلام – من طين [(٣)] . فالإنسان أريد به هنا الجنس [(٤)] .

قال سيد قطب – رحمه الله – : " ومن إحسانه في الخلق بدأ خلق هذا الإنسان من طين . فالتعبير قابل لأن يفهم منه أن الطين كان بداءة ، وكان في المرحلة الأولى ... وقد يكون ذلك إشارة إلى بدء نشأة الخلية الحية الأولى في هذه الأرض ، وأنها نشأت من طين . وأن الطين كان المرحلة السابقة لنفخ الحياة فيها بأمر الله . وهذا هو السر الذي لم يصل إليه أحد ، لا ما هو ؟ ولا كم استغرق من الزمن والأطوار ... غير أنه يحسن – بهذه المناسبة – تقرير أن نظرية النشوء والارتقاء لدارون القائلة بأن الأنواع تسلسلت من الخلية الواحدة إلى الإنسان في أطوار متوالية ، وأن هناك حلقات نشوء ارتقاء متصلة تجعل أصل الإنسان المباشر حيواناً فوق القردة العليا ودون الإنسان ، أن هذه النظرية غير صحيحة في هذه النقطة ، وأن كشف عوامل الوراثة التي لم يكن دارون قد عرفها تجعل هذا التطور من نوع إلى نوع ضرباً من المستحيل . فهناك عوامل وراثة كامنة في خلية كل نوع تحتفظ له بخصائص نوعه ، وتحتم أن يظل في دائرة النوع الذي نشأ منه .

ولا يخرج قط عن نوعه ، ولا يتطور إلى نوع جديد ، فالقط أصله قط وسيظل قطاً على توالي القرون ، والكلب كذلك ، والثور ، والحصان ، والقرد ، والإنسان .

---

(١) سورة التين : الآية (٤) .

(٢) سورة الإسراء : الآية (٧٠) .

(٣) انظر : تفسير ابن كثير ٥/ ٤٠٦ .

(٤) انظر : التحرير والتنوير ٢١/ ٢١٦ .

وكل ما يمكن أن يقع حسب نظريات الوراثة هو الارتقاء في حدود النوع نفسه ، دون الانتقال إلى نوع آخر .

وهذا يبطل القسم الرئيسي في نظرية دارون ، التي فُهم ناس من المخدوعين باسم العلم أنها حقيقة غير قابلة للنقض في يوم من الأيام " (١) .

وقد بين سبحانه الأطوار التي مر بها أصل الخلق، فأصله(من طين) ثم (جعل نسله من سلالة من ماء مهين) .

" أي يتناسلون كذلك من نطفة تخرج من بين صلب الرجل وترائب المرأة " (٢) .

والمهين الضعيف – كما تقدم في الغريب – ، وهذا يوحى بامتنان الله سبحانه على الإنسان ، حيث إنه مع ضعف أصله ومنشئه ، إلا أنه حسن الخلق والصفات ، مكرم على سائر المخلوقات .

ومن ناحية أخرى فإن التعبير بـ : (مهين) يشعر الإنسان بضعفه حتى لا يتعالى ويتكبر على الخلق ، وحتى لا يتمرد على ما أوجب عليه الخالق .

وبعد أن أثبت سبحانه أصل خلق الإنسان بين سبحانه تسويته وتكوينه، فبدأ بنفخ الروح فيه بقوله – عزَّ وجل – : (ثم سواه ونفخ فيه من روحه) .

إما أن يعود الضمير في (سواه) و (نفخ فيه) إلى آدم ، أو إلى جميع البشر (٣)، وكلاهما محتمل .

قال القرطبي – رحمه الله –: " وركب فيه الروح ، وأضافه إلى نفسه تشريفاً ، وأيضاً فإنه من فعله وخلقه كما أضاف العبد إليه بقوله : (عبدي) .

وعبر بالنفخ ؛ لأن الروح من جنس الريح " (٤) .

ثم جاء الالتفات في التعبير من الغيبة إلى الخطاب بقوله سبحانه : (وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون) .

فالمخاطبون من أفراد الناس ، والله سبحانه ركب في جميع الناس هذه الحواس والأعضاء :

---

(١) الظلال ٦/ ٥١٤ .

(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ٤٠٦ .

(٣) انظر : القرطبي ١٤/ ٩١ .

(٤) القرطبي ١٤/ ٩١ .

١- السمع .   ٢- الأبصار .   ٣- الأفئدة (التي هي القلوب والعقول) .

ولذا وبخ الله سبحانه من لم ينتفع بهذه المنن على الوجه الصحيح فلم يشكر ربه على هذه الحواس وقوى العقل فقال سبحانه : (قليلاً ما تشكرون)

أي : قليلاً ما تشكرون الله باستخدام هذه القوى التي رزقكموها الله عزَّ وجل ، فالسعادة باستخدامها في طاعة الله ، والشقاوة بعكس ذلك [(١)] .

تلكم الأطوار في نشأة وخلق الإنسان جاء إيضاحها في السنة ببيان مدة كل ما يمر به المخلوق البشري أثناء تكوينه في رحم أمه ، مما يدل على بديع صنع الله - عزَّ وجل - وعظم قدرته - سبحانه وتعالى - .

عن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- قال : حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق ، قال : (إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكاً فيؤمر به بأربع كلمات ، ويقال له: اكتب عمله ورزقه وأجله وشقي أو سعيد ، ثم ينفخ فيه الروح ، فإن الرجل منكم ليعمل حتى ما يكون بينه وبين الجنة إلا ذراع ، فيسبق عليه كتابه ، فيعمل بعمل أهل النار ، ويعمل حتى ما يكون بينه وبين النار إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة) [(٢)] .

فتبارك الله أحسن الخالقين ، ولا إله إلا الله رب العالمين .

ربنا تبارك وتعالى خلقنا ورزقنا النعم العظيمة في البدن وخارجه ، ورضي لنا الشكر وأوجبه علينا ، ولكن كثيراً من الناس معرض كما قال سبحانه في هذه الآيات : (قليلاً ما تشكرون) .

شكر الله عزَّ وجل يكون بالاعتراف بالنعمة ، والإقرار بأنها منة من الله وحده ، وكذا صرف هذه النعمة في طاعة مسديها المتفضل بها ، الذي يثيب الشاكر رغم تفضله هو وحده سبحانه بالنعم التي لا تعد ولا تحصى .

---

(١) انظر : ابن كثير ٥/ ٤٠٦ ، والتحرير والتنوير ٢١/ ٢١٧ .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق - باب ذكر الملائكة ٤/ ٧٨ واللفظ له ، ومسلم في كتاب القدر - باب كيفية الخلق الآدمي ٤/ ٣٦ وغيرهما .

المبحث الثالث
إثبات المعاد ليوم الجزاء والحساب

ويشتمل على :

١ – إنكار المشركين للبعث .

٢ – تكذيبهم وإقامة الحجة عليهم .

٣– ندم المجرمين يوم الدين .

٤ – الوعيد الشديد للمكذبين والمعاندين .

الآيات :

﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ﴿١١﴾ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمۡۖ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ .

١- إنكار المشركين للبعث :

بين الله عزَّ وجل في هذه الآيات مدى تيه المشركين المكذبين ، حيث حكى الله إنكارهم للبعث بعد الموت وتكذيبهم بيوم الدين ، بقوله سبحانه : (وقالوا) أي المشركون (أإذا ضللنا في الأرض أإنا لفي خلق جديد) .

فهم يستفهمون استفهام إنكار وتعجب ، ومعنى كلامهم " أي إذا تمزقت أجسادنا وتفرقت واختلطت في أجزاء الأرض ، فهو يعود بعد تلك الحال ؟؟ !! يستبعدون ذلك !!! [1] .

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٥/ ٤٠٧ .

وهذا إنما هو بحسب عقولهم القاصرة ونسبة إلى نظرتهم المادية البسيطة وقدرتهم الضعيفة، فلم يتفكروا في قدرة الله الذي ابتدأ خلقهم وأوجدهم من العدم.

فالإعادة ليست بأشق من البدء والإبداع !!

هذه هي عادة المشركين وتلك طريقة المعاندين المكابرين ضلوا الطريق وركبوا أهواءهم الفاسدة.

وقد تكرر في القرآن الكريم حكاية الله عزَّ وجل - إنكار المشركين للبعث بعد الموت، وذلك على سبيل الذم لهم والتعجب من مسلكهم، ومن هذه الآيات:

١- قوله تعالى: ﴿ وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٥ ﴾[1].

٢- قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ٤٩ ۞ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ٥٠ أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا ٥١ ﴾[2].

٣- قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ١٦ ﴾[3].

٤- قوله تعالى: ﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ ١٥ ﴾[4].

فهذه الآيات وما في معناها تبين مدى ضلال الكفار والمشركين في إنكارهم البعث بعد الموت، وقد ذمهم الله - عزَّ وجل - وعجب من بهتهم وسفه أحلامهم.

---

(١) سورة الرعد: الآية (٥).

(٢) سورة الإسراء الآية (٤٩-٥١).

(٣) سورة الروم: الآية (١٦).

(٤) سورة ق: الآية (١٥).

وفي الحديث القدسي عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ (أراه يقول الله) : " شتمني ابن آدم وما ينبغي له أن يشتمني ! ويكذبني وما ينبغي له ، أما شتمه فقوله إن لي ولداً ، وأما تكذيبه فقوله ليس يعيدني كما بدأني "[1] .

٢- تكذيبهم وإقامة الحجة عليهم :

لما ذكر الله عزَّ وجل عن المشركين استكبارهم بالتكذيب بالبعث بعد الموت وكفرهم بلقاء ربهم رد عليهم بإثبات ما نفوا (وقالوا أإذا ضللنا في الأرض أإنا لفي خلق جديد بل هم بلقاء ربهم كافرون) .

فهم زيادة على تيههم وعمى بصائرهم باستبعادهم البعث حسب قياسهم المادي القاصر : إذا ضاعت أجسامهم في الأرض واختلطت ذرات أعضائهم بالتراب يتصورون أنهم لن يعادوا من جديد !!!

زيادة على هذا التصور المنتكس قد كفروا بلقاء خالقهم وموجدهم من العدم مع أنهم يقرون بربوبيته وقدرته !![2] .

وقد كذبهم الله سبحانه وبين بطلان زعمهم بقوله : (قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون) .

فهنا جاء التعبير بالرب (ثم إلى ربكم ترجعون) فالخالق ليس بعاجز – سبحانه – عن الإعادة ، والموت حق لا ينكره أحد ، لكنهم استبعدوا الإعادة بعده فأبطل الله جهلهم وافترائهم .

وأسند التوفي هنا إلى ملك الموت وإن كان فعله بأمر الله مقدره كما قال الله عزَّ وجل : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴿٤٢﴾ ﴾[3] .

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق- باب ما جاء في قول الله تعالى : (وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده ...) ٤/ ٧٣ .

(٢) انظر : التحرير والتنوير ٢١/ ٢٢٠ .

(٣) سورة الزمر : الآية (٤٢) .

قال ابن كثير : " الظاهر من هذه الآية أن ملك الموت شخص معين من الملائكة ، كما هو المتبادر من حديث البراء المتقدم ذكره في سورة إبراهيم ، وقد سمي في بعض الآثار بعزرائيل وهو المشهور ، قاله قتادة وغير واحد ، وله أعوان، وهكذا ورد في الحديث أن أعوانه ينتزعون الأرواح من سائر الجسد حتى إذا بلغت الحلقوم تناولها ملك الموت .

قال مجاهد : " حويت له الأرض فجعلت مثل الطست يتناول منها متى يشاء "[1] .

وهذه الآية تبين أن ملك الموت هو الملك الموكل يقبض الأرواح ، ويرد ذكره في القرآن مفرداً ومجموعاً - كما هنا - وكما في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ﴿٥٠﴾ ﴾[2] .

فالملائكة الآخرون أعوان لعزرائيل كما تقدم عند ابن كثير[3] .

إن الله سبحانه أمر نبيه أن يخاطب هؤلاء المعاندين ويرد زعمهم الباطل أنهم لن يعادوا بعد الموت بقوله سبحانه : (قل) يا محمد (يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون) .

وعندما يرجعون إلى الله سيتحسرون على ما تمسكوا به في هذه الدار من تكذيب وعناد .

وهذا ما يأتي في الفقرة التالية :

٣- ندم المجرمين يوم الدين :

يقول الله سبحانه : (ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون) .

هذه الآية تبين أن التكذيب بالبعث من أقبح الجرائم حيث وصف المكذبين به بالمجرمين ، وتوضح الحرج الشديد والحسرة الكبرى لهؤلاء المعاندين، وذلك عندما يعاينوا الأمر واقعاً كما وعدوا به !!

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ٤٠٧ .

(٢) سورة الأنفال : الآية (٥٠) .

(٣) وانظر : التحرير والتنوير ٢١/ ٢٢٠ .

" إنه مشهد الخزي والاعتراف بالخطيئة ، والإقرار بالحق الذي جحدوه، وإعلان اليقين بما شكوا فيه ، وطلب العودة إلى الأرض لإصلاح ما فات في الحياة الأولى .. وهم ناكسوا رؤوسهم خجلاً وخزياً (عند ربهم) الذي كانوا يكفرون بلقائه في الدنيا .

ولكن هذا كله يجيء بعد فوات الأوان حيث لا يجزئ اعتراف ولا إعلان "[1] .

إن معنى قول المجرمين المكذبين هنا في هذا الموقف (ربنا أبصرنا وسمعنا) : " أي نحن الآن نسمع قولك ونطيع أمرك كما قال تعالى :﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴿٣٨﴾ ﴾[2] .

وكذلك يعودون على أنفسهم بالملامة إذا دخلوا النار بقولهم : ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ ﴾[3] .

ومع هذه الحسرة البالغة فهم يتمنون الرجوع إلى الدنيا لتدارك ما فات (فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون) .

لكن الله سبحانه يعلم أنهم لو أعادهم إلى دار الدنيا لكانوا كما كانوا فيها كفاراً يكذبون بآيات الله ويخالفون رسله كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾[4] .

إن سياق الآية ونظمها يحكي ذل هؤلاء المعاندين وهوانهم يوم الدين[5] .

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٥١٦ .
(٢) سورة مريم : الآية (٣٨) .
(٣) سورة الملك : الآية (١٠) .
(٤) سورة الأنعام : الآية (٢٧ ، ٢٨) .
(٥) ابن كثير ٥/ ٤٠٨ .

قال العلامة الطاهر بن عاشور : " والناكس الذي يجعل أعلى الشيء إلى أسفل ، يقال : نكس رأسه ، إذا طأطأه ؛ لأنه كمن جعل أعلى الشيء إلى أسفل !

ونكس الرؤوس علامة الذل والندامة ، وذلك مما يلاقون من التقريع والإهانة !! "[1] .

٤- الوعيد الشديد للمكذبين والمعاندين :

إن الله سبحانه وتعالى – حكيم عليم – يضل من يشاء ويعذبه بحكمته وعدله ، ويهدي من يشاء وينعمه برحمته وفضله ، وقد كتب سبحانه الشقاء على هؤلاء الضالين المكذبين .

ولما ذكر سبحانه تمني المجرمين العودة إلى دار العمل ليعملوا صالحاً بيَّن سبحانه ضلالهم المستمر وتوعدهم على عنادهم بقوله سبحانه :

(ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين – فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم إن هذا إنا نسيناكم وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون) .

" والمعنى : لو شئنا لجبلنا كل نفس على الانسياق إلى الهدى بدون اختيار، كما جبلت العجماوات على ما ألهمت إليه من نظام حياة أنواعها فلكانت النفوس غير محتاجة إلى النظر في الهدى وضده ، ولا إلى دعوة من الله إلى طريق هدى،ولكن الله لما أراد أن يكل إلى نوع الإنسان تعمير هذا العالم ، وأن يجعله عنواناً لعلمه وحكمته ، وأن يفضله على جميع الأنواع والأجناس العامرة لهذا العالم ، اقتضى لتحقيق هذه الحكمة أن يخلق في الإنسان عقلاً يدرك به النفع ، والضر ، والكمال ، والنقص ، والصلاح ، والفساد ، والتعمير ، والتخريب ، وتنكشف له بالتدبر عواقب الأعمال المشتبهة والمموهة بحيث يكون له اختيار ما يصدر عنه من أجناس وأنواع الأعمال التي هي في مكنته بإرادة تتوجه إلى الشيء وضده ، وخلق فيه من أسباب العمل وآلاته من الجوارح والأعضاء إذا كانت سليمة ، فكان بذلك مستطيعاً لأن يعمل وأن لا يعمل على وفاق ميله واختياره وكسبه .. "[2] .

(١) التحرير والتنوير ٢١/ ٢٢١ .

(٢) التحرير والتنوير ٢١/ ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

إن الله سبحانه وتعالى قادر على هداية الناس جميعاً ولكن اقتضت حكمته أن يبتليهم ويختبرهم ، كما دلت عليه هذه الآية ، وكما في قوله – عزَّ وجل – : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [(١)] .

وقال سبحانه : ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ ﴿٢﴾ ﴾ [(٢)] .

لقد بين الله – عزَّ وجل – طريق الهداية وطريق الغواية ودل كل إنسان إليها ومكنه من الاختيار وإرادة أي الطريقين .

قال –عزَّ وجل –: ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ ﴾ [(٣)] أي الطريقين .

وهذه الآيات التي معنا فيها الوعيد الشديد لمن كذب وعاند وسلك طريق الغواية بدلاً من الهداية والرشد (ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) ولا يظلم ربك أحداً .

فالحق تبارك وتعالى توعد بملء النار دار عذابه وغضبه ، وقد أشار النبي ﷺ إلى معنى هذه الآية في الأحاديث الصحيحة :

فعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : ((تحاجت الجنة والنار ، فقالت النار : أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين . وقالت الجنة : فما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم وغرتهم [أي البله الغافلون] قال الله – تبارك وتعالى – للجنة : إنما أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي . وقال للنار : إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي . ولكل واحدة منكما ملؤها . فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع الله – تبارك وتعالى – رجله تقول : قط

---

(١) سورة يونس : الآية (٩٩) .

(٢) سورة الملك : الآية (٢) .

(٣) سورة البلد : الآيات (٨–١٠) .

قط قط . فهنالك تمتلئ ، ويزوى بعضها إلى بعض . ولا يظلم الله من خلقه أحداً . وأما الجنة فإن الله ينشئ لها خلقاً)) [(١)] .

وبعد دخول المجرمين النار وامتلاؤها منهم يزيد الله من عذابهم وإذلالهم وإهانتهم بقوله : (فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون) .

قال ابن كثير – رحمه الله – : " أي يقال لأهل النار على سبيل التقريع والتوبيخ : ذوقوا هذا العذاب بسبب تكذيبكم به واستبعادكم وقوعه وتناسيكم له ؛ إذ عاملتموه معاملة من هو ناس له (إنا نسيناكم) أي سنعاملكم معاملة الناسي ؛ لأنه – تعالى – لا ينسى شيئاً ولا يضل عنه شيء ، بل هذا من باب المقابلة كما قال تعالى : ﴿ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴿٣٤﴾ ﴾ [(٢)] " [(٣)] .

والأعمال سبب للجزاء ، ولذا قال : (وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون) أي بسبب ما عملتم من الكفر والتكذيب ! .

يا لها من خسارة وما أشده من عذاب ونكال عندما يغضب الرب ويخلد هؤلاء في نار جهنم أجارنا الله من ذلك .

*****

---

(١) أخرجه البخاري : كتاب التفسير (سورة ق) – باب قوله : وتقول هل من مزيد ٦/٤٨، ومسلم في كتاب الجنة – باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء حديث رقم (٣٦) ٤/٢١٨٦ واللفظ له .

(٢) سورة الجاثية : الآية (٣٤) .

(٣) تفسير ابن كثير ٥/٤٠٨ .

المبحث الرابع
(مدح أهل الإيمان وبيان عملهم وجزاؤهم)

وفيه

١ – خضوع المؤمنين لمولاهم بالسجود (وأحكام سجود التلاوة) .

٢ – أعمالهم الصالحة (قيام الليل – الدعاء – الخوف والرجاء – الإنفاق) .

٣– ما أعده الله لهم من قرة العين .

الآيات :

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ .

مناسبة الآية لما قبلها :

القرآن الكريم كلام الله – عزَّ وجل – خطاب لعباده ، به الهداية من الضلال والعلاج من أمراض القلوب ، وهذا الكتاب العظيم يأتي بالأشياء المتقابلة ترغيباً وترهيباً ، فيأتي بالوعد والوعيد ، ويذكر النعيم والعذاب ، ويبشر برضى الله والجنة ويحذر من سخطه والنار ، وهذا من الأقوال في معنى (مثاني) في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ [1] [2] .

وفي هذه الآيات التي معنا لما ذكر الله المكذبين وما ينتظرهم من العذاب والنكال والحسرة في الدار الآخرة ، ذكر عقبهم عباده المتقين الذين يخضعون لأمره بالسجود ويقبلون على طاعته وطاعة رسوله وما أعده الله لهم من نعيم لا

(١) سورة الزمر : الآية (٢٣) .

(٢) انظر معالم التنزيل ٤/ ٧٦ ، وتيسير الكريم الرحمن ص ٧٢٣ .

يخطر على بال (فلا تعلم ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) .وهذا كله تذكير للعباد ليكون همهم الاستعداد ليوم المعاد .

وبعد ذكر هذه المناسبة والتي هي توطئة للدخول في الحديث بهذا المبحث أبدأ بفقراته فيما يلي :

١- خضوع المؤمنين لمولاهم بالسجود (وأحكام سجود التلاوة) :

أثنى الله – سبحانه – على عباده المؤمنين الذين يعظمون ربهم ومولاهم بالخضوع له بالسجود ، وجاء التعبير بالحصر تخصيصاً لهم بهذا الشرف وهذه المزية (إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجداً وسبحوا بحمد وهم لا يستكبرون) .

إن السجود لله عبادة عظيمة ومكانة رفيعة ، لأنه تعظيم لله العظيم سبحانه ، وتواضع للجبار الكبير ، ومن تواضع لله رفعه الله .

والسجود لله نتيجة للإيمان به والانقياد لرسوله – ﷺ – كما يفهم من هذه الآية الكريمة (إذا ذكروا بها خروا سجداً) .

ودلَّ قوله تعالى (خروا سجداً) على سرعة امتثال المؤمن لأمر ربه ومبادرته لطاعته وحبه للانطراح بين يديه سبحانه ، ولا غرو في ذلك .

وهذه الآية توحي بأن الكفار تكبروا عن السجود الخالص لله – سبحانه – ولذا فإنهم يحجبون يوم القيامة عن القدرة عليه وإن أرادوه عقاباً لهم على هذا الإعراض والعناد في دار العمل ، قال – عزَّ وجل – :

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [١] .

فضل السجود :

إن المؤمن يتقرب إلى مولاه بالسجود له والخضوع لعظمته وقد ورد في الحديث الصحيح عن النبي – ﷺ – أنه قال : " أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء " [٢] .

(١) سورة القلم : الآيات (٤١-٤٣) .

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الصلاة – باب ٤٢ ما يقال في الركوع والسجود ١/ ٣٥٠ وغيره .

وعن ثوبان مولى رسول الله ﷺ أنه سأل الرسول – ﷺ – عن عمل يدخل الجنة فقال – ﷺ – : " عليك بكثرة السجود ، فإنك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة وحط عنك بها خطيئة " [1] .

وعن ربيعة بن كعب الأسلمي قال : كنت أبيت مع رسول الله – ﷺ – فأتيته بوضوئه وحاجته فقال لي : " سل " فقلت : أسألك مرافقتك في الجنة ، قال : " أو غير ذلك ذلك " قلت : هو ذاك . قال : " فأعني على نفسك بكثرة السجود " [2] .

أحكام سجود التلاوة :

ليس هذا البحث فقهياً ، أو خاصاً بسجود التلاوة ، وإنما ورد سجود التلاوة عرضاً ، لذا سأوجز هنا وأقتصر على بعض هذه الأحكام ، تمشياً مع طبيعة مثل هذا البحث . فأقول :

أولاً : حكم سجود التلاوة :

اختلف العلماء في ذلك على ثلاثة أقوال :

الأول :

أنه واجب مطلقاً في الصلاة وخارجها .

وهذا مذهب الحنفية ، ورواية عن الإمام أحمد اختارها شيخ الإسلام ابن تيمية .

القول الثاني :

أنه واجب في الصلاة ، مسنون خارجها .

وهذا القول رواية للإمام أحمد .

القول الثالث :

– وهو قول الجمهور – أنه سنة مطلقاً .

ذهب إلى هذا المالكية ، والشافعية ، وأحمد في رواية عنه ، وهي المذهب والظاهرية والليث بن سعد ، والأوزاعي ، وإسحاق ، وأبو ثور [3] .

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الصلاة – باب ٤٣ فضل السجود ... ١/ ٣٥١ .

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الصلاة – باب ٤٣ فضل السجود ١/ ٣٥١ .

(٣) انظر : المغني لابن قدامة ٢/ ٣٦٤ ، ومجموع الفتاوى ٢٣/ ١٣٩ ، وسجود التلاوة وأحكامه ص ١٢-١٩ .

وهذا هو القول الراجح [١] للأدلة التالية :

١- حديث زيد بن ثابت - رضي الله عنه - " أنه قرأ على النبي - ﷺ - (والنجم) فلم يسجد فيها " [٢] .

٢- ما ثبت عند البخاري عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أنه قرأ يوم الجمعة على المنبر بسورة النحل حتى إذا جاء السجدة نزل فسجد وسجد الناس ، حتى إذا كانت الجمعة القابلة قرأ بها حتى إذا جاء السجدة قال : " يا أيها الناس إنا نمر بالسجود فمن سجد فقد أصاب ومن لم يسجد فلا إثم عليه " ولم يسجد عمر - رضي الله عنه - .

زاد نافع عن ابن عمر - رضي الله عنهما - : " إن الله لم يفرض السجود إلا أن نشاء " [٣] .

ثانياً : فضل سجود التلاوة :

سجود التلاوة يدخل في عموم الفضل الوارد في السجود ، وقد تقدم قريباً ، وقد ورد في الصحيح فضل خاص لسجود التلاوة وهو ما رواه أبو هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : " إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي يقول : يا ويله [وفي رواية يا ويلي] أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة ، وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار " [٤] .

فهذا يدل على عظم مكانة سجود التلاوة خاصة وكبير فضله ، وإن كان دالاً على فضل السجود عموماً .

ثالثاً : الطهارة لسجود التلاوة :

اختلف العلماء هل تشترط الطهارة لسجود التلاوة أم لا ؟

(١) انظر : المغني ٢/ ٢٦٤ ، وسجود التلاوة وأحكامه ص ٢٧ .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب سجود القرآن - باب ٦ من قرأ ولم يسجد ٢/ ٣٢ .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب سجود القرآن - باب ١٠ من رأى أن الله - عزَّ وجل - لم يوجب السجود ٢/ ٣٤ .

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان - باب ٣٥ بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة ١/ ٨٧ حديث (١٣٣) ، وأحمد في مسنده ٢/ ٤٤٣ .

على قولين :

واختلافهم هذا منهي على أن سجود التلاوة هل يعد صلاة أم لا ؟

والجمهور ومنهم الأئمة الأربعة على أنه يعد صلاة فتشترط له الطهارة[1] .

وذهب آخرون إلى أنه لا يعد صلاة ، فلا تشترط له الطهارة .

ذهب إلى هذا الطبري [2]، وابن حزم[3] ، واختاره شيخ الإسلام ابن تيمية [4] ، وقال به الشيخ العثيمين [5] – رحمهم الله – .

واحتجوا بأن ابن عمر – رضي الله عنهما – كان يسجد على غير طهارة [6] .

قال الشيخ العثيمين : " ولا ريب أن الأفضل أن يتوضأ ، ولا سيما أن القارئ سوف يتلو القرآن وتلاوة القرآن يشرع لها الوضوء " [7] .

رابعاً : هل لسجود التلاوة وقت معين :

بناء على ما تقدم من ترجيح الأئمة لعدم كون سجود التلاوة صلاة فلا يدخل في النهي عن الصلاة في أوقات معينة لذا فإنه يفعل أي وقت وجد سببه وهو قراءة آية فيها سجدة ، والله أعلم .

٢- أعمالهم الصالحة :

(قيام الليل – الدعاء – الخوف والرجاء – الإنفاق)

أثنى الله على عباده المؤمنين بأعمالهم الصالحة التي يتقربون بها إليه ويتلذذون بها تلهفاً لرضوان مولاهم وإليك تلك الأعمال :

أولاً : قيام الليل :

وذلك في قوله سبحانه : (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) .

---

(١) انظر : المغني ٢/ ٣٥٨ والشرح الممتع ١/ ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، وسجود التلاوة وأحكامه ص ٦٩ ، ٩٧ .
(٢) حاشية الروض المربع لابن قاسم ٢/ ٢٣٣ .
(٣) المحلى ٧٧ ، ٨٠ وانظر سجود التلاوة وأحكامه ص ٩٧ .
(٤) مجموع الفتاوى ٢٣/ ١٦٥ .
(٥) الشرح الممتع ١/ ٣٢٦ ، ٣٢٧ .
(٦) مجموع الفتاوى ٢٣/ ١٦٥ ، والشرح الممتع ١/ ٣٢٧ .
(٧) الشرح الممتع ١/ ٣٢٧ .

فهم يفارقون أماكن نومهم رغم الفرش الوثيرة ولذة النوم ويؤثرون الوقوف بين يدي ربهم خاشعين .

وقد اختلف المفسرون في المراد بهذه الصلاة .

فقيل : الصلاة بين المغرب والعشاء .

وقيل : صلاة المغرب .

وقيل : صلاة العتمة (العشاء) .

وقيل : قيام الليل (أي التهجد والتنفل بالليل) [١] .

والقول الأخير قول جمهور المفسرين قال به مجاهد ، والحسن ، وابن زيد، وأبو العالية ، والأوزاعي ، ومالك بن أنس ، وكثير من العلماء ، وهو اختيار الطبري [٢] .

قال القرطبي : " ويدل عليه قوله تعالى : (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) . لأنهم جوزوا على ما أخفوا بما خفي [٣] .

فهؤلاء حريصون على التهجد وقيام الليل تأسياً بإمامهم وقدوتهم وسيدهم وفخرهم في الدنيا والآخرة رسول الله – ﷺ – ، كما قال عبد الله بن رواحة – رضي الله عنه – :

وفينا رسول الله يتلو كتابه ●●● إذا انشق معروف من الصبح ساطع

أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا ●●● به مؤمنات أن ما قال واقع

يبيت يجافي جنبه عن فراشه ●●● إذا استثقلت بالمشركين المضاجع [٤]

- **فضل التجافي :**

ورد أحاديث وآثار كثيرة في فضل قيام الليل والتجافي عن المضاجع منها:

١ – عن ابن مسعود – رضي الله عنه – عن النبي – ﷺ – قال : " عجب ربنا – عزَّ وجل – من رجلين : رجل ثار عن وطائه ولحافه من بين أهله إلى صلاته رغبة فيما عندي وشفقة مما عندي ، ورجل غزا في سبيل الله – عزَّ وجل –

(١) انظر : جامع البيان للطبري ٢٠/ ١٠٠ ، ١٠١ ، وابن كثير ٥/ ٤٠٩ .

(٢) انظر : جامع البيان ٢٠/ ١٠١ ، والجامع لأحكام القرآن ١٤/ ١٠٠ ، وروح المعاني ٢١/ ١٣١ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٤/ ١٠٠ .

(٤) جامع البيان ٢٠/ ١٠٢ ، والجامع للقرطبي ١٤/ ١٠٠ ، وابن كثير ٥/ ٤٠٩ .

فانهزموا ، فعلم ما عليه من الفرار وماله من الرجوع ، فرجع حتى أهريق دمه رغبة فيما عندي وشفقة مما عندي ، فيقول الله – عزَّ وجل – لملائكته انظروا إلى عبدي رجع رغبة فيما عندي ورهبة مما عندي حتى أهريق دمه "[1] .

٢- عن معاذ بن جبل – رضي الله عنه – قال : كنت مع النبي – ﷺ – في سفر ، فأصبحت يوماً قريباً منه ونحن نسير ، فقلت : يا نبي الله ، أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار ، قال : لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله عليه ، تعبد الله لا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت ، – ثم قال -: ألا أدلك على أبواب الخير ؟ الصوم جنة ، والصدقة تطفئ الخطيئة ، وصلاة الرجل في جوف الليل، ثم قرأ قوله– تعالى– : (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) حتى بلغ (يعملون) ..." الحديث[2] .

٣- عن أسماء بنت يزيد قالت : قال رسول الله – ﷺ – " إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة جاء مناد فنادى بصوت يسمع الخلائق : سيعلم أهل الجمع اليوم من أولى بالكرم ، ثم يرجع فينادي : ليقم الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع – الآية – فيقومون وهم قليل"[3] .

هذه الأحاديث دالة على فضل قيام الليل والتهجد وإيثار مرضاة الله على الراحة والنوم ، وهي دائرة في فلك الآية التي معنا هنا حيث الثناء على قوام الليل " إنهم يقوم لصلاة الليل .. ويتهجدون بالصلاة ودعاء الله ، ولكن التعبير القرآني يعبر عن هذا القيام بطريقة أخرى (تتجافى جنوبهم عن المضاجع)

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ١/ ٤١٦ ، وأبو داود في الجهاد / باب ٣٨ في الرجل يشري نفسه ٣/ ٤٢ رقم ٢٥٣٦ ، وابن حبان ٤/ ١١٥ رقم ٢٥٤٩ وسنده حسن كما في مجمع الزوائد ٢/ ٢٥٥ ، وتخريج الموسوعة الحديثة للمسند ٧/ ٦١ ، ٦٢ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٥/ ٢٣١ ، والترمذي في كتاب الإيمان – باب ما جاء في حرمة الصلاة ٥/ ١١ ، ١٢ حديث (٢٦١٦) وقال حديث حسن صحيح ،وابن ماجة في كتاب الفتن – باب ١٢ كف اللسان في الفتنة ٢/ ١٣١٤ . وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه ٢/ ٣٥٩ رقم ٣٢٠٩ .

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره كما عزاه إليه ابن كثير ٥/ ٤١٠ ، ٤١١ .

فيرسم صورة المضاجع في الليل تدعو الجنوب إلى الرقاد والراحة والتذاذ المنام . ولكن هذه الجنوب لا تستجيب ، وإن كانت تبذل جهداً في مقاومة دعوة المضاجع المشتهاة . لأن لها شغلاً عن المضاجع اللينة والرقاد اللذيذ ، شغلاً بربها، شغلاً بالوقوف في حضرته ، وبالتوجه إليه في خشية وفي طمع ... "[(١)] .

ثانياً : الدعاء :

أشارت الآية إلى التجاء المؤمنين إلى ربهم بالدعاء حال القيام والتهجد ، والدعاء لب العبادة ، بل هو العبادة كما في قوله – ﷺ – : " الدعاء هو العبادة "[(٢)] .

وفي معنى هذه الآية قول الحق – سبحانه – : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾[(٣)] .

إن الدعاء مطلب شرعي عظيم ومنزلة رفيعة حيث إن العبد يخضع لربه ومولاه ويستكين بين يديه ، ولذا فإن الله – عزَّ وجل – يحب أن ندعوه ونلح في ذلك ، بل يغضب على من لم يدعه كما في الحديث عنه – ﷺ – : " من لم يدع الله – سبحانه – غضب عليه "[(٤)] .

قال الشاعر :

الله يغضب إن تركت سؤاله ... وبُنَيُّ آدم حين يُسأل يغضب

والله سبحانه توعد المعرضين عن دعائه بالعذاب الأليم .

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٥١٨ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٤/ ٢٦٧ من حديث النعمان بن بشير – رضي الله عنه – وكذا الترمذي في كتاب التفسير – باب ٣ من سورة البقرة ٤/ ٢١١ حديث (٢٩٦٩) وقال : حسن صحيح ، وابن ماجة في كتاب الدعاء – باب ١ فضل الدعاء ٢/ ١٢٥٨ ، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه ٢/ ٣٢٤ رقم ٣٠٨٦ .

(٣) سورة الأنبياء : الآية (٩٠) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده ٢/ ٤٤٣ من حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – وابن ماجة في كتاب الدعاء – باب ١ فضل الدعاء ٢/ ١٢٥٨ .، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه ٢/ ٣٢٤ رقم ٣٠٨٥ .

قال–سبحانه –:﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾[1] .

ثالثاً : الخوف والرجاء :

إن الخوف والرجاء عبادتان من العبادات القلبية التي لا تصرف إلا لله – سبحانه – وهما ميزان للعبد ، بحيث لو فقد أحدهما أهلكه الآخر ، إما قنوط من رحمة الله أو أمن من عذابه ومكره فهما – كما شبههما العلماء – كجناحي الطائر ،يطير بهما العبد في سيره إلى الله – سبحانه – والعمل بطاعته .

(يدعون ربهم خوفاً وطمعاً) .

" ... الخوف من عذاب الله والرجاء في رحمته ، والخوف من غضبه والطمع في رضاه ، والخوف من معصيته والطمع في توفيقه " ، والتعبير يصور هذه المشاعر المرتجفة في الضمير بلمسة واحدة ، حتى لكأنها مجسمة ملموسة : (يدعون ربهم خوفاً وطمعاً) ... "[2] .

رابعاً : الإنفاق :

إن هؤلاء الصالحين لا يقتصر نفعهم على أنفسهم ، بل يتعدى إلى غيرهـم ، حيث إنهم يضمون إلى الصلاة والدعاء إنفاق المال في وجوهه المتنوعة (الواجب منها والمستحب) فيؤدون حق الله – سبحانه – وحق عباده (ومما رزقناهم ينفقون) .

والإنفاق من العبادات المالية ، وهو مكفر للسيئات مطهر للمال ومنق للنفس من البخل والشح ودليل على صدق الإيمان واليقين بما عند الله – عزَّ وجل – من الأجور ومضاعفة الحسنات ...

كل هذه الثمرات للإنفاق تشهد لها الأحاديث الصحيحة مثل قوله – ﷺ – : " والصدقة تطفئ الخطيئة "[3] .

---

(١) سورة غافر : الآية (٦٠) .

(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٥١٨ .

(٣) جزء من حديث معاذ المتقدم تخريجه قريباً ص ٣٥.

وقوله – ﷺ – : " والصدقة برهان "[(١)] .

قال النووي – رحمه الله – : " وأما قوله – ﷺ – : " والصدقة برهان " فقال صاحب التحرير معناه : يفزع إليها كما يفزع إلى البراهين ... وقال غير صاحب التحرير معناه : الصدقة حجة على إيمان فاعلها فإن المنافق يمتنع منها لكونه لا يعتقدها ، فمن تصدق استدل بصدقته على صدق إيمانه ، والله أعلم "[(٢)] .

قلت : ولعل القول الأخير هو الأقرب ؛ فهو المتبادر إلى الأذهان .

وفي التعبير القرآني : (ومما رزقناهم ينفقون) إشارة إلى توفيق الله لهؤلاء الموصوفين، فالله امتن عليهم بالمال ، ولذا قدم الجار والمجرور ، ووفقهم لطاعته ورضاه بالإنفاق .

٣- ما أعده الله لهم من قرة العين :

لما ذكر الله – سبحانه – خضوع عباده له بالسجود والتسبيح عند التذكير بالآيات ، وعدم الاستكبار ، وأثنى عليهم بالتهجد له والدعاء والإنفاق بين – عزَّ وجل – ما أعده لهم من الثواب العظيم مما لا يخطر على بال، فقال سبحانه :(فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) .

في الصحيح عن أبي هريرة – رضي الله عنه – عن النبي – ﷺ – قال : " قال الله تبارك وتعالى : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ! ، قال أبو هريرة : اقرؤوا إن شئتم (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون "[(٣)] .

قال ابن كثير – رحمه الله – في تفسير الآية : " أي فلا يعلم أحد عظمة ما أخفي الله لهم في الجنات من النعيم المقيم واللذات التي لم يطلع على مثلها أحد ، لما أخفوا أعمالهم كذلك أخفى الله لهم من الثواب ، جزاء وفاقاً ، فإن الجزاء من جنس العمل .

قال الحسن البصري : أخفى قوم عملهم فأخفى الله لهم ما لم تر عين ولم يخطر على قلب بشر . رواه ابن أبي حاتم "[(٤)] .

(١) أخرجه مسلم في كتاب الطهارة – باب ١ فضل الوضوء ١/ ٢٠٣ حديث (٢٢٣) .
(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ٣/ ١٠١ .
(٣) أخرجه البخاري في كتاب التفسير – سورة تنزيل السجدة ٦/ ٢١ .
(٤) تفسير ابن كثير ٥/ ٤١١ ، والأثر عن الحسن أخرج نحوه الطبري في جامع البيان ٢١/ ١٠٦ .

إن هذا الثواب لهؤلاء العباد الصالحين لا حد له ولا منتهى ، والله سبحانه جواد كريم لا يتعاظمه شيء ، وهذا النعيم الذي يثيبه – سبحانه – إياهم يسر قلوبهم يبهج نفوسهم أيما سرور وبهجة (من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) .

بل إن هذه الكرامة لهؤلاء هي لأعلى أهل الجنة منزلة ، يدل عليه قول المصطفى – ﷺ – في حديث المغيرة بن شعبة – رضي الله عنه – ، قال – ﷺ – : " سأل موسى ربه : ما أدنى أهل الجنة منزلة ؟ قال : " هو رجل يجيء بعدما أدخل أهل الجنة الجنة فيقال له : ادخل الجنة . فيقول : أي رب ! كيف ؟ وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أخذاتهم ؟ فيقال له : أترضى أن يكون لك مثل مُلك مَلِكٍ من ملوك الدنيا ؟ فيقول : رضيت رب ! فيقول : لك ذلك ومثله ومثله ومثله ومثله . فقال في الخامسة : رضيت رب ! فيقول : هذا لك وعشرة أمثاله ، ولك ما اشتهت نفسك ولذت عينك . فيقول : رضيت رب !

قال : رب فأعلاهم منزلة ؟ فقال : أولئك الذين أردت ، غرست كرامتهم بيدي وختمت عليها . فلم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر " قال ومصداقه في كتاب الله – عزَّ وجل – (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين) "[(١)] .

وهذا الوعد العظيم كما هو مذكور في القرآن الكريم ومدون في السنة الصحيحة المطهرة فقد ذكر في الكتب السابقة ترغيباً للأمم وشحذاً للهمم .

أخرج الطبري عن عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – قال : إن في التوراة مكتوباً : لقد أعد الله للذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع ما لم تر عين ، ولم يخطر على قلب بشر ، ولم تسمع أذن ، وما لم يسمعه ملك مقرب . قال : ونحن نقرؤها (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين) "[(٢)] .

حقاً إن هذه الآية من أعظم آيات الوعد والترغيب ومن أكبر المبشرات للمؤمنين المتهجدين المنفقين ! .

نسأل الله بمنه وكرمه أن يجعلنا ووالدينا وذرياتنا منهم إنه سميع مجيب .

*****

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان – باب ٨٤ أدنى أهل الجنة منزلة ١/ ١٧٦ حديث (٣١٢) .
(٢) جامع البيان ٢١/ ١٠٣ .

المبحث الخامس
(الفرق بين الفريقين)

وفيه

١- عدم الاستواء .

٢- جزاء الفاسقين .

٣- تأبيد الخلود في نار جهنم .

الآيات :

قال الله -عزَّ وجل-: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [(١)] .

١- عدم الاستواء :

لما ذكر الله – عزَّ وجل – في الآيات السابقة الفريقين [المؤمنين والكافرين] بيَّن هنا عدم الاستواء بينهما ، وجاء السياق بصيغة الاستفهام الإنكاري المتضمن للتعجب [(٢)] (أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً) .

والفسق هنا يتجه إلى الكفر والتكذيب[(٣)]، وإن كان يدخل في مسماه كبائر الذنوب ،ويؤيده سبب النزول .

وقد نفى الله – سبحانه – الاستواء بين الفريقين بقوله (لا يستوون) فلا يستوون في منزلتهم عند الله في الدنيا ولا في حكمه يوم القيامة " وما يستوي

(١) سورة السجدة : الآيات (١٨-٢٢) .

(٢) انظر : التحرير والتنوير ٢١/ ٢٣١ .

(٣) انظر : تفسير ابن كثير ٥/ ٤١٤ .

المؤمنون والفاسقون في طبيعة ولا شعور ولا سلوك ، حتى يستووا في الجزاء في الدنيا وفي الآخرة سواء ..والمؤمنون مستقيمو الفطرة متجهون إلى الله ، عاملون على منهاجه القويم ، والفاسقون منحرفون شاردون مفسدون في الأرض ، لا يستقيمون على الطريق الواصل المتفق مع نهج الله للحياة وقانونه الأصيل ، فلا عجب إذن أن يختلف طريق المؤمنين والفاسقين في الآخرة ، وأن يلقى كل منهما الجزاء الذي يناسب رصيده وما قدمت يداه "[1] .

وقد جاء في معنى هذه الآية آيات أخرى تبين عدم استواء المؤمنين والكافرين وما يترتب عليه من عدم استواء منزلتهم عند الله وجزائه لكل منهما ، كما قال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[2] .

وقال تعالى: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ ﴾[3] .

وقال سبحانه : ﴿ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ ﴿٢٠﴾ ﴾[4] .

وقال أيضاً : ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾[5] .

ولما كان الفريقان غير مستويين بَيَّن الله سبحانه ما أعد للفريقين (أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلاً بما كانوا يعملون) .

فهذا جزاء المؤمنين المتقين .

قال الطبري – رحمه الله – في تفسير هذه الآية : " يقول تعالى ذكره : أما الذين صدقوا الله ورسوله وعملوا بما أمرهم الله ورسوله ، فلهم جنات المأوى : يعني بساتين المساكن التي يسكنونها في الآخرة ويأوون إليها "[6] .

---

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٥١٩ .
(٢) سورة الجاثية : الآية (٢١) .
(٣) سورة ص : الآية (٢٨) .
(٤) سورة الحشر : الآية (٢٠) .
(٥) سورة القلم : الآية (٣٥-٣٦) .
(٦) جامع البيان ٢١/ ١٠٧ .

والنزل كما قال أبو حيان : " عطاء النازل ، ثم صار عاماً فيما يعد للضيف " [(١)] .

فهذا النعيم الذي يثيبهم به ربهم كرامة لهم رفعةً لهم . وهذا ضد ما يجازى به الفريق الآخر وهم الفاسقون كما في الفقرة التالية .

٢- جزاء الفاسقين :

لقد جاء سياق الآيات بتفصيل جزاء الفاسقين ووعيدهم في الدنيا والآخرة تهديداً لهم .

(وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون – ولنذيقنهم من العذاب الأدنى ومن العذاب الأكبر لعلهم يرجعون) .

قال ابن كثير – رحمه الله – : " (وأما الذين فسقوا) أي خرجوا عن الطاعة (فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها) كقوله : ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴿٢٠﴾ ﴾ [(٢)] الآية .

قال الفضيل بن عياض : والله إن الأيدي لموثقة وإن الأرجل لمقيدة وإن اللهب ليرفعهم والملائكة تقمعهم (وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون) أي يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً " [(٣)] .

هذا وقد أنذرهم الله – سبحانه – عذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة من أجل أن يراجعوا أنفسهم ويتوبوا إلى ربهم ، وهذا من تفضل الله على عباده أن جعل لهم فسحةً من أمرهم في هذه الدار ، دار العمل ، قبل دار الجزاء التي لا رجعة فيها .

قال سبحانه : (ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون) .

كثرت أقوال المفسرين في المراد بالعذاب الأدنى هنا :

فقيل : مصائب الدنيا في الأنفس والأموال (وهذا قول ابن عباس – رضي الله عنهما –) .

---

(١) البحر المحيط ٧/ ٢٠٣ ، وانظر التحرير والتنوير ٢١/ ٢٣٢ .

(٢) سورة الحج : الآية (٢٢) .

(٣) تفسير ابن كثير ٥/ ٤١٤ .

وقيل : الحدود .

وقيل : ما حل بالكفار من قتل يوم بدر .

وقيل : السنون التي أصابتهم ، وهي الحرب والقحط .

وقيل : عذاب القبر .

وقيل : عذاب الدنيا عموماً [(١)] .

وهذه الأقوال كلها محتملة داخلة في عموم معنى الآية ،وهذا ما اختاره إمام المفسرين الطبري– رحمه الله – [(٢)] .

وممن اختار القول بالعموم أيضاً السعدي في تفسيره ثم أشار إلى نكته هامة حيث قال : " وهذه الآية من الأدلة على إثبات عذاب القبر ، ودلالتها ظاهرة ، فإنه قال : (ولنذيقنهم من العذاب الأدنى) أي : بعض وجزء منه ، فدل على أن ثمّ عذاباً أدنى قبل العذاب الأكبر وهو عذاب النار " [(٣)] .

والتعبير هنا بالأدنى مقابلة بالأكبر وهو عذاب الآخرة يدل على أن عذاب الدنيا يهون عند العذاب الأخروي كما قال سبحانه : ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [(٤)] .

ثم بيَّن الله – سبحانه– عظم جرمهم وشدة ظلمهم بتكذيبهم الكتب وعنادهم للرسل فقال– عزَّ وجل – : (ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها إنا من المجرمين منتقمون) .

أي لا أحد أظلم ممن كذب بآيات الله واستكبر بإعراضه وعناده [(٥)] ، وقد توعدهم الله بالانتقام ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ ﴾ [(٦)] .

---

(١) انظر : جامع البيان ٢١/ ١٠٨–١١٠ ، وتفسير ابن كثير ٥/ ٤١٥ .

(٢) انظر : جامع البيان ٢١/ ١١٠ .

(٣) تيسير الكريم الرحمن ص ٦٥٦ .

(٤) سورة طه : الآية (١٢٧) .

(٥) انظر : تيسير الكريم الرحمن ص ٦٥٦ .

(٦) سورة آل عمران : الآية (٤) .

وهذا الوعيد في هذه الآية يؤكد ما سبق من الوعيد بالعذاب في الدنيا والآخرة .

٣- تأبيد الخلود في نار جهنم :

بيَّن الله سبحانه في هذه الآيات أن الفاسقين الكافرين خالدون في نار جهنم ، وقد قطع أطماعهم من الخروج بقوله (كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون) .

يفهم من هذا النص أن أهل النار مخلدون فيها أبداً لا يخرجون منها كما قال – عزَّ وجل – : ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾** ﴾ [١] .

وقال– سبحانه –: ﴿ **وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾** ﴾ [٢] .

وهذا معتقد لأهل السنة والجماعة أن الكفار مخلدون أبداً في نار جهنم ، أما عصاة الموحدين فإنهم –وإن عذبوا في النار –فإن مآلهم إلى الجنة برحمة الله –عزَّ وجل– .

كما أنه يفهم من الآية فهم آخر وهو زيادة عذاب لهم وإيلام وإهانة،ذلك أنه يكون لهم أمل في الفرج من شدة العذاب ، لكن إذا أرادوا الخروج أعيدوا إلى الإهانة والعذاب فيشتد عليهم الكرب ويتضاعف الإيلام والحسرة [٣] .

قال سيد قطب – رحمه الله – : " كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها " وهو مشهد فيه حركة المحاولة للفرار والدفع للنار (وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون) فهو التقريع زيادة على الدفع والتعذيب !!" [٤] .

*****

(١) سورة الأحزاب : الآيات (٦٤–٦٥) .
(٢) سورة الجن : الآية (٢٣) .
(٣) انظر : تيسير الكريم الرحمن ص ٦٥٦ .
(٤) في ظلال القرآن ٦/ ٥٢٠ .

المبحث السادس
(الإشارة إلى قصة موسى عليه السلام)

وفيه

١ – إيتاؤه الكتاب .

٢ – أهمية الصبر في الدعوة إلى الله عزَّ وجل .

٣ – منزلة اليقين في الدين .

الآيات :

قال الله – عزَّ وجل -: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَـٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾[1] .

مناسبة الآيات لما قبلها :

لما ذكر الله سبحانه عناد المشركين المكذبين لنبينا محمد – ﷺ وما توعدهم به من العقاب في الدنيا والآخرة جاء ذكر موسى – عليه السلام – وصبره وأتباعه على أذى فرعون وجنده بعد أن آتاه الكتاب ، تثبيتاً لقلب النبي – ﷺ – وتسلية له ولأتباعه في الدعوة إلى الله – عزَّ وجل - .

وإلى فقرات هذا المبحث :

١- إيتاؤه الكتاب :

ذكر الله – عزَّ وجل – في هذه الآيات بعثته لنبيه موسى – عليه السلام – بقوله (ولقد آتينا موسى الكتاب) أي التوراة .

قال العلامة الطاهر بن عاشور : " وأريد بقوله (آتينا موسى الكتاب) أرسلنا موسى ، فذكر إيتائه الكتاب كناية عن إرساله ، وإدماج ذكر (الكتاب) للتنويه بشأن موسى ، وليس داخلاً في تنظير حال الرسول – ﷺ – بحال موسى عليه السلام – في تكذيب قومه إياه ، لأن موسى لم يكذبه قومه .

---

(١) سورة السجدة : الآيات (٢٣-٢٥) .

ألا ترى إلى قوله – تعالى – : (وجعلناه هدى لبني إسرائيل) الآيات ، وليتأتى من وفرة المعاني في هذه الآية ما لا يتأتى بدون ذكر الكتاب "[١] .

ويأتي قوله – عزَّ وجل – : (فلا تكن في مرية من لقائه) بعد قوله : (ولقد آتينا موسى الكتاب) تثبيتاً لقلب النبي – ﷺ – وإبعاداً له عن الشك .

وهذا اللقاء المشار إليه في الآية – عند المفسرين ، هو لقاء النبي – ﷺ – بموسى عليه السلام ليلة الإسراء لما أخرج الطبري عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : قال نبي الله – ﷺ – : " أريت ليلة أسري بي موسى مربوع الخَلق إلى الحمرة والبياض ، سَبْط الرأس ، ورأيت مالكاً خازن النار ، والدجال " في آيات أراهن الله إياه ، (فلا تكن في مرية من لقائه) أنه قد رأى موسى ولقي موسى ليلة أسري به "[٢] .

وهذا مشهور عن قتادة – رحمه الله –[٣] .

هذا ما قرره المفسرون ، وهناك توجيه آخر للآية ، حيث قال سيد قطب – رحمه الله – : " وتفسير هذه العبارة المعترضة (فلا تكن في مرية من لقائه) على معنى تثبيت الرسول – ﷺ – على الحق الذي جاء به وتقرير أنه الحق الواحد الثابت الذي جاء به موسى في كتابه ، والذي يلتقي عليه الرسولان ويلتقي عليه الكتابان . وهذا التفسير أرجح عندي مما أورده بعض المفسرين منها أنها إشارة إلى لقاء النبي – ﷺ – لموسى عليه السلام في ليلة الإسراء والمعراج ؛ فإن اللقاء على الحق الثابت والعقيدة الواحدة هو الذي يستحق الذكر والذي ينسلك في سياق التثبيت على ما يلقاه النبي – ﷺ – من التكذيب والإعراض ، ويلقاه المسلمون من الشدة واللأواء ، وكذلك هو الذي يتسق ما جاء بعد في الآية : (وجعلنا منهم يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون..."[٤] .

---

(١) التحرير والتنوير ٢١/ ٢٣٥ .
(٢) جامع البيان ٢١/ ١١٢ ، وانظر تفسير ابن كثير ٥/ ٤١٦ .
(٣) المرجع السابق نفسه .
(٤) في ظلال القرآن ٦/ ٥٢٠ ، ٥٢١ .

فعلى هذا ذكر إيتاء الكتاب لموسى ولقاء النبي – ﷺ – لموسى فيه تثبيت للنبي – ﷺ – وأتباعه على الحق ، ولئلا يختلج نفوسهم أدنى شك في صدق ما في القرآن من حق أو أي تردد في حصول موعود الله لهم بالنصر والظفر بالأجر .

٢- أهمية الصبر في الدعوة إلى الله عزَّ وجل .

ذكر الله – عزَّ وجل – ثمرة الصبر على الطاعة والدعوة إلى الله – عزَّ وجل – بقوله : (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا) .

فبالصبر تنال الإمامة في الدين ، وأعظم بذلك من مزية وشرف !!

قال الطبري في معنى الآية : " وجعلنا منهم أئمة يهدون أتباعهم بإذننا إياهم وتقويتنا إياهم على الهداية ، إذ صبروا على طاعتنا ، وعزفوا أنفسهم عن لذات الدنيا وشهواتها "[(١)] .

وقال الطاهر بن عاشور : " أشير إلى ما من الله به علي بني إسرائيل ، إذ جعل منهم أيمة يهدون بأمر الله ، والأمر يشمل الوحي بالشريعة لأنه أمر بها ، ويشمل الانتصاب للإرشاد فإن الله أمر العلماء أن يبينوا الكتاب ويرشدوا إليه ، فإذا هدوا إنما هدوا بأمره وبالعلم الذي أتاهم به أنبياؤهم وأحبارهم، فأنعم الله عليهم بذلك لما صبروا وأيقنوا لما جاءهم من كتاب الله ومعجزات رسولهم .

فإن كان المراد من قوله : (بآياتنا يوقنون) دلائل صدق موسى – عليه السلام – أما المعنى : أنهم صبروا على مشاق التكليف ...وإن كان المراد من الآيات ما في التوراة من الشرائع والمواعظ فإطلاق اسم الآيات عليها مشاكلة تقديرية لما هو شائع بين المسلمين من تسمية جمل القرآن آيات لأنها معجزة في بلاغتها خارجة عن طوق تعبير البشر ...

وفي هذا تعريض بالبشارة لأصحاب رسول الله – ﷺ – بأن يكون أئمة لدين الإسلام وهداة للمسلمين إذ صبروا على ما لحقهم في ذات الله من أذى قومهم وصبروا على مشاق التكليف ومعاداة أهلهم وقومهم وظلمهم إياهم "[(٢)] .

(١) جامع البيان ٢١/ ١١٣ .
(٢) التحرير والتنوير ٢١/ ٣٢٧ .

إن طريق الطاعة والدعوة إلى الله – عزَّ وجل – محفوفة بالصعوبات والعقبات الكبيرة والكثيرة ، ولا بد من الصبر على ما يعرض للداعية من جراء دعوته ، فقد يلقى الأذى الحسي بالضرب والاعتداء الجسدي ونحو ذلك ، وقد يلقى الأذى المعنوي بالصد والإعراض والاحتقار ، وربما التكذيب والاتهامات الباطلة ، وكل ذلك من الابتلاءات كي يتبين الصادق من غيره .

قال الله – عزَّ وجل – : ﴿ الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣ ﴾[(١)] .

لقد ابتُلي الأنبياء بأشد أنواع الأذى وصبروا وصابروا وفي مقدمتهم نبينا محمد – ﷺ – حيث آذاه قومه وعشيرته بالتكذيب والمقاطعة والأذى الجسدي والمعنوي ، حتى إنهم أخرجوه من مكة وهموا بقتله – ﷺ – ومع ذلك صبر ومضى في دعوته إلى الله– عزَّ وجل– وصار إماماً للدعاة والمصلحين .

إن الله – عزَّ وجل – أشاد بصبر الأنبياء وبين أن العاقبة تكون لهم ، ومن ذلك قوله – سبحانه – :

﴿ وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ ۝٣٤ ﴾[(٢)] .

إن الصبر أساس نجاح دعوة الرسل والدعاة إلى الله – عزَّ وجل – ولا بد منه تجاه الملحدين والمعاندين والعصاة ، لذا أمر الله به رسوله – ﷺ – في قوله: ﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ۝٦٠ ﴾[(٣)] .

وقال سبحانه: ﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ۝٦٠ ﴾[(٤)] .

---

(١) سورة العنكبوت : الآيات (١-٣) .
(٢) سورة الأنعام : الآية (٣٤) .
(٣) سورة الأحقاف : الآية (٣٥) .
(٤) سورة الروم : الآية (٦٠) .

والصبر سبب للفوز والظهور والنجاة من المكائد، قال – عزَّ وجل – :
﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ﴿١٢٠﴾ ﴾[1] .

وقال –سبحانه –: ﴿ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾[2] .

كما أن الصبر يؤدي إلى الفلاح وهو الفوز الدنيوي والأخروي، كما قال – عزَّ وجل – : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾[3] .

إلى غير ذلك من نصوص الصبر الواردة في الحث عليه والترغيب فيه وبيان ثمراته العظيمة في الدنيا والآخرة .

والذي يعنينا هنا الصبر في مجال الإرشاد والدعوة إلى الله – عزَّ وجل – والذي ندبنا ربنا – سبحانه – إليه بقوله : (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) .

فما أحوج الدعاة والمصلحين والمربين إلى الصبر في إصلاح ما اعوج من أمور المتعاملين معهم، وعدم الاستعجال والحذر من اليأس أو الفتور .

وليس الصبر خاصاً بمجال الدعوة فحسب، بل ضرورة للتمسك بدين الله – عزَّ وجل – والاستقامة عليه .

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – : " الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد "[4] .

هذا وما ذكره الله – عزَّ وجل – عن بني إسرائيل كان في أول أمرهم لما كانوا مقتدين بموسى متمسكين بالتوراة حين كانت نقية لم تحرف أو تبدل أو تؤول تأويلات باطلة .

---

(١) سورة آل عمران : الآية (١٢٠) .

(٢) سورة آل عمران : الآية (١٢٥) .

(٣) سورة آل عمران : الآية (٢٠٠) .

(٤) أخرجه البيهقي في الجامع لشعب الإيمان ١/ ١٨٥، ١٨٦، وفي سنده انقطاع، وأورده ابن كثير في تفسيره ٥/ ٤١٦.

قال الحافظ ابن كثير – رحمه الله – : " أي لما كانوا صابرين على أوامر الله وترك زواجره وتصديق رسله وأتباعهم فيما جاءوهم به ، كان منهم أئمة يهدون إلى الحق بأمر الله ، ويدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ثم لما بدلوا وحرفوا وأولوا سلبوا ذلك المقام ، وصارت قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ،فلا عمل صالحاً ،ولا اعتقاداً صحيحاً ،ولهذا قال– تعالى-:
﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿١٦﴾ ﴾[1].
... قال سفيان : " هكذا كان هؤلاء "[2].

٣- منزلة اليقين في الدين :
اليقين – كما عرفه الراغب في المفردات – : " من صفة العلم فوق المعرفة والدراية وأخواتها ، يقال : علم يقين ، ولا يقال : معرفة يقين .
وهو سكون الفهم مع ثبات الحكم "[3].
فاليقين درجة علمية وعقدية عالية ،وهو منزلة شريفة وعظيمة في دين الإسلام، حيث إنه يضاد الريب والشك .

قال الله – تعالى– مثنياً على عباده المتقين : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ ﴾[4].
وقال– سبحانه-: ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ ﴾[5].
وبيَّن – سبحانه – في كتابه أن اليقين هو الذي يحمل العبد على تدبر آيات الله الشرعية والكونية .

---

(١) سورة الجاثية : الآية (١٦) .
(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ٤١٦ .
(٣) المفردات ص ٥٥٢ (يقين) .
(٤) سورة البقرة : الآية (٤–٥) .
(٥) سورة لقمان : الآية (٤) .

يقول –عزَّوجل -: ﴿ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [١] .

وقال أيضاً : ﴿ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [٢] .

وقال –سبحانه – : ﴿ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [٣] .

فهذه الآيات القرآنية دالة على أن اليقين أساس الانتفاع بالآيات الشرعية والكونية والإيمان بها .

وقد ذمَّ الله – عزَّ وجل – من جحد وكفر لانعدام اليقين عنده .

قال – عزَّ وجل – : ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [٤] .

وقال – سبحانه – : ﴿ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [٥] .

وفي الآية التي معنا بيان أن اليقين من أسباب الرفعة والحصول على الإمامة (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) .

نقل ابن كثير – رحمه الله – عن بعض العلماء قوله : " بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين " [٦] .

إن اليقين شرط في الاعتقاد الكامل الصحيح ، لذا عده العلماء من شروط " لا إله إلا الله " .

عن شداد بن أوس – رضي الله عنه – عن النبي – ﷺ – : " سيد الاستغفار أن يقول : اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك

(١) سورة النمل : الآية (٨٢) .
(٢) سورة الجاثية : الآية (٢٠) .
(٣) سورة الجاثية : الآية (٤) .
(٤) سورة الروم : الآية (٦٠) .
(٥) سورة الطور : الآية (٣٦) .
(٦) تفسير ابن كثير ٥/ ٤١٧ .

علي، وأبوء لك بذنبي ، اغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلاَّ أنت " قال : " ومن قالها من النهار موقتاً بها فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة ، ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة " (١) .

قال ابن حجر – رحمه الله – : " قوله " من قالها موقناً بها " أي مخلصاً من قلبه مصدقاً بثوابها " (٢) .

واليقين يقي صاحبه من الفتن ويثبته عند البلاء وامتحان القبر .

عن فاطمة عن أسماء – رضي الله عنهما – قالت : أتيت عائشة – رضي الله عنها – وهي تصلي فقت : ما شأن الناس ؟ فأشارت إلى السماء ، فإذا الناس قيام ، فقالت : سبحان الله ! ، قلت : آيه ؟! فأشارت برأسها (أي نعم) فقمت حتى علاني الغَشْي ، فجعلت أصب علي الماء ، فحمد الله النبي – ﷺ – وأثنى عليه ، ثم قال : " ما من شيء لم أكن أريتُه إلا رأيتهُ في مقامي ، حتى الجنة والنار ، فأوحي إلي أنكم تفتنون في قبوركم مثل أو قريباً (لا أدري أي ذلك قالت أسماء) من فتنة المسيح الدجال يقال : ما علمك بهذا الرجل ؟ فأما المؤمن أو الموقن (لا أدري بأيتهما قالت أسماء) فيقول : هو محمد ، هو رسول الله ، جاءنا بالبينات والهدى فأجبنا واتبعنا ، هو محمد – ثلاثاً – فيقال : نم صالحاً ، قد علمنا إن كنت لموقنا به ، وأما المنافق أو المرتاب (لا أدري أي ذلك قالت أسماء) فيقول :لا أدري سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته " (٣) .

إن اليقين له الأثر البالغ على من وقر في قلبه ورسخ في تفكيره وعقله ، وإن ثمراته وآثاره كثيرة جداً ، لا يتسع المقام لبسطها والتدليل لها ، ولعل فيما ذكرت كفاية .

*****

(١) أخرجه البخاري في كتاب الدعوات – باب ٢ فضل الاستغفار ٧/ ١٤٥ .

(٢) فتح الباري ١١/ ١٠٠ .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب العلم – باب ٢٤ من أجاب الفتيا بإشارة اليد والرأس ١/ ٢٩ ، ٣٠ .

المبحث السابع
(أدلة مشاهدة على إمكانية البعث)

وفيه

١- توالي القرون والأجيال .

٢- إحياء الأرض الميتة بالمطر .

الآيات :

قال الله -عزَّ وجل -: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [1] .

مناسبة الآيات لما قبلها :

لما ذكر الله – عزَّ وجل – ما انطوت عليه نفوس الكافرين من تكذيب للرسل وإنكار للبعث في آيات سابقة كقوله – سبحانه – : (وقالوا أءذا ضللنا في الأرض أإنا في خلق جديد بل بلقاء ربهم كافرون) [الآية العاشرة من هذه السورة] .

بيَّن سبحانه هنا سننه التي لا تتغير ولا تتبدل في أخذه للظالمين وضرب إحياء الأرض الميتة مثلاً للبعث والنشور . هذا وجه للمناسبة [2] .

وإلى فقرات هذا المبحث .

١- توالي القرون والأجيال :

قال – تعالى – : ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ .

---

(١) سورة السجدة : الآيات (٢٦-٢٧) .

(٢) انظر : التحرير والتنوير ٢١/ ٢٣٩ .

الاستفهام في الآية استفهام تعجب من حال الكفار وإنكار عليهم تكذيبهم للرسل والبعث بعد الموت ونسيان ما حل بالمعاندين من العذاب في الدنيا قبل الآخرة ، فهؤلاء المخاطبون وإن كانوا يشاهدون مصارع الغابرين إلا أنهم في غفلة عن الاعتبار والاتعاظ(١)، ولذا حثهم الله – عزَّ وجل – على التفكر في هذه العبر والغطات من قبلهم بقوله : (إن في ذلك لآيات أفلا يسمعون) .

قال السعدي – رحمه الله – : " (إن في ذلك لآيات) يستدل بها على صدق الرسل التي جاءتهم وبطلان ما هم عليه من الشرك والشر ، وعلى أن من فَعَل فعلهم فُعِلَ به كما فعل بأشياعه من قبل ، وعلى أن الله – تعالى – مجازي العباد وباعثهم للحشر والحساب (أفلا يسمعون) آيات الله فيعونها فينتفعون بها ... " (٢) .

وقال الطاهر بن عاشور – رحمه الله – : " (أو لم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات أفلا يسمعون) ... ولما كان التذكير متصلاً ، كقوله (وقالوا أإذا ضللنا في الأرض أإنا لفي خلق جديد بل هم بلقاء ربهم كافرون) . كان الهدي ، أي العلم المستفهم عنه بهذا الاستفهام شاملاً للهدي إلى دليل البعث وإلى دليل العقاب على الإعراض عن التذكير فأفاد قوله (كم أهلكنا من قبلهم من القرون) معنيين :

أحدهما – إهلاك أمم كانوا قبلهم فجاء هؤلاء المشركون بعدهم ، وذلك تمثيل للبعث وتقريب لإمكانه .

وثانيهما – إهلاك أمم كذبوا رسلهم ففيهم عبرة لهم أن يصيبهم مثل ما أصابهم " (٣) .

٢- إحياء الأرض الميتة بالمطر :

ومن الأدلة الحسية المشاهدة على البعث والنشور بعد الموت قوله – تعالى – (أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون) .

---

(١) انظر : جامع البيان ٢١/ ١١٤ ، وتفسير ابن كثير ٥/ ٤١٧ .
(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ٦٥٧ .
(٣) التحرير والتنوير ٢١/ ٢٣٩ .

قال الطبري – رحمه الله – في تأويل هذه الآية : " يقول – تعالى – ذكره : أو لم ير هؤلاء المكذبون بالبعث بعد الموت والنشر بعد الفناء ، أنا بقدرتنا نسوق الماء إلى الأرض اليابسة الغليظة التي لا نبات فيها ، وأصله من قولهم : ناقة جرز، إذا كانت تأكل كل شيء ، وكذلك الأرض الجروز التي لا يبقى على ظهرها شيء إلا أفسدته ، نظير أكل الناقة الجراز كل ما وجدته، ومنه قولهم للإنسان الأكول : جروز "[1] .

فهذه الآية واضحة الدلالة على البعث بعد الموت وأن الله – عزَّ وجل – قادر على ذلك ، فإن من أحيى الأرض الجرز الميتة قادر على الإعادة والبعث والنشور ، سبحانه وتعالى .

ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾[2] .

وكذا قوله تعالى : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾[3] .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ ﴾[4] .

هذه الآيات تؤكد ما دلت عليه الآية التي معنا من أن إحياء الأرض الميتة بالمطر من آيات الله الدالة على البعث بعد الموت .

*****

(١) جامع البيان ٢١/ ١١٤ .
(٢) سورة فصلت : الآية (٣٩) .
(٣) سورة يس : الآية (٣٣) .
(٤) سورة الزخرف : الآية (١١) .

(ختام السورة)

وفيه

١ - سفه المشركين باستعجال العذاب .

٢ - تهديد المعاندين مع إمهالهم .

الآيات :

قال -عزَّ وجل -: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [(١)] .

مناسبة خاتمة السورة لافتتاحيتها :

افتتحت السورة بذكر ما عليه الكفار من تكذيب للنبي - ﷺ - حيث قال - سبحانه - : (أم يقولون افتراه) وقد ختمت بما يناسب ذلك ، إذ إنهم استهزءوا باستعجال العذاب وهذا نتيجة لتكذيبهم .

وإلى فقرات الخاتمة .

١- سفه المشركين باستعجال العذاب :

في ختام هذه السورة بيَّن الله - عزَّ وجل - مبلغ السفه الذي وصل إليه المشركون ، حيث سألوا عن وقت العذاب أو الحكم عليهم سؤال استهزاء استعجالاً منهم ، وينطوي ذلك على تكذيبهم واستبعادهم له [(٢)] .

قال تعالى : (ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين) .

وقد اختلف المفسرون في المراد بهذا الفتح على قولين :

فقيل : الحكم والقضاء أو الثواب والعقاب ، قال به قتادة وقيل : فتح مكة [(٣)] .

والمرجح عند جمهور المفسرين القول الأول [(٤)] .

---

(١) سورة السجدة : الآيات (٢٨ - آخرها) .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير ٥/ ٤١٩ ، وروح المعاني ٢١/ ١٤٠ .

(٣) انظر : جامع البيان ٢١/ ١١٦ ، وتفسير ابن كثير ٥/ ٤١٩ .

(٤) انظر : جامع البيان ٢١/ ١١٦ ، وتفسير ابن كثير ٥/ ٤١٩ ، وروح المعاني ٢١/ ١٤١ وأضواء البيان ٦/ ٥٠٧ .

واستبعد القول الثاني الطبري [(١)]، وابن كثير [(٢)]، والألوسي [(٣)]، وغيرهم .

إن هذا السؤال من المشركين عن وقت الحكم وزمن نزول العذاب يدل على شدة تعنتهم ومبلغ جهلهم وضعف عقولهم ، وقد وردت نصوص أخرى في الكتاب تبين استعجالهم للعذاب استهزاء منهم بالنبي – ﷺ – وتكذيباً له ، ومنها :

قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ [(٤)] .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ [(٥)] .

وقوله تعالى : ﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [(٦)] .

إن حال المشركين هذه غريبة وموقفهم عجيب أن يستعجلوا هلكتهم وحلول العقاب بهم ، ولكنه الكفر والتكذيب المؤدي إلى الاستبعاد للعذاب ومن ثم الاستهزاء بسؤاله " وهم غافلون عن حكمة الله في تأخيره إلى أجله الذي قدره ، والذي لا يقدمه استعجالهم ولا يؤخره ، وما هم بقادرين على دفعه ولا الإفلات منه !! " [(٧)] .

٢- تهديد المعاندين مع إمهالهم :

لما بين الله سبحانه سفه المشركين باستعجال العذاب هددهم بأن العذاب آت لا محالة ، وهذا ما يتضمنه قوله سبحانه :

(قل يوم الفتح لا ينفع ظلموا إيمانهم ولا هم ينظرون) .

قال سيد قطب – رحمه الله – : " سواء أكان هذا اليوم في الدنيا ، إذ يأخذهم الله وهم كافرون ، فلا يمهلهم بعده ولا ينفعهم إيمانهم فيه ، أو كان هذا

---

(١) جامع البيان ٢١/١١٦ .
(٢) تفسير ابن كثير ٥/٤١٩ .
(٣) روح المعاني ٢١/١٤١ .
(٤) سورة الحج : الآية (٤٧) .
(٥) سورة العنكبوت : الآية (٥٣) .
(٦) سورة العنكبوت : الآية (٥٤) .
(٧) في ظلال القرآن ٦/٥٢٣ .

اليوم في الآخرة إذ يطلبون المهلة فلا يمهلون .. وهذا الرد يخلخل المفاصل، ويزعزع القلوب ... "[١].

إن هذه الآية فيها إنذار المشركين وتخويفهم بأن يفجأهم العذاب ويباغتهم أخذ الله لهم وهم على غيهم وعنادهم، حينها لا ينفع ندم ولا يمكنهم محاولة التصديق والإيمان كما قال –عزَّ وجل-: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾[٢].

وكما قال – عزَّ وجل – : ﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ﴿١٨﴾ ﴾[٣].

وقال –عزَّوجل-: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ ﴾[٤].

إن العذاب إذا حلَّ والموت إذا نزل فلا سبيل إلى التوبة ولا ينفع الإيمان كما دلت على ذلك النصوص المتقدمة وكما يفيده قوله تعالى أيضاً: ﴿ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾[٥].

وفي الحديث المروي عن النبي –ﷺ-: "إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر"[٦].

---

(١) المرجع السابق.
(٢) سورة غافر: الآية (٨٤-٨٥).
(٣) سورة النساء: الآية (١٨).
(٤) سورة يونس: الآيات (٩٠-٩١).
(٥) سورة الأنعام: الآية (١٥٨).
(٦) أخرجه الإمام أحمد ٢/ ١٣٢ من حديث ابن عمر، والترمذي في كتاب الدعوات – باب ٩٩ فضل الاستغفار ... ٥/ ٥٤٥ وقال: حسن غريب وحسنه الألباني في صحيح الجامع ٢/ ١٥١.

وبعد هذا التهديد للمستهزئين المكذبين أرشد الله – عزَّ وجل – نبيه – ﷺ – إلى الاستمرار في مجال الدعوة والإعراض عن تعنتهم وعنادهم بقوله – سبحانه – : (فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون) .

قال ابن كثير – رحمه الله – : " أي أعرض عن هؤلاء المشركين وبلغ ما أنزل إليك من ربك ... ، وانتظر فإن الله سينجز لك ما وعدك وسينصرك على من خالفك ، إنه لا يخلف الميعاد . وقوله : (إنهم منتظرون) أي أنت منتظروهم منتظرون ويتربصون بكم الدوائر ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [1] . وسترى أنت عاقبة صبرك عليهم وعلى أداء رسالة الله في نصرتك وتأييدك ، وسيتظرون غب ما يتنظرونه فيك وفي أصحابك من وبيل عقاب الله لهم ، وحلول عذابه بهم " [2] .

هذا ومن لطف الله بخلقه وإحسانه إليهم وتفضله عليهم أنه لا يعاجلهم بالعقوبة مهما أجرموا ، بل يمهلهم كي يتوبوا وينيبوا إليه ويراجعوا عقولهم علهم يفيقوا من غيهم ويؤمنوا بربهم ، لكن إذا لم ينفعهم الإمهال أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر كما قال – عزَّ وجل – : ﴿ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ ﴾ [3] .

وعن أبي موسى – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله – ﷺ – : " إن الله – تعالى – ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته " قال : ثم قرأ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [4] [5] .

---

(١) سورة الطور : الآية (٣٠) .

(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ٤١٩ ، وانظر روح المعاني ٢١/ ١٤١ ، وفي ظلال القرآن ٦/ ٥٢٣ .

(٣) سورة القلم : الآية (٤٥) .

(٤) سورة هود : الآية (١٠٢) .

(٥) أخرجه البخاري في كتاب تفسير سورة هود – باب ٥ قوله وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة ٥/ ٢١٤ ، ومسلم في كتاب البر والصلة – باب ١٥ تحريم الظلم ٥/ ١٩٩٧ حديث (٢٥٨٣) وغيرهما .

وفي ختام تفسير هذه السورة العظيمة قال الأديب الفذ سيد قطب – رحمه الله – : " ... ثم يعقبه الإيقاع الأخير في السورة : (فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون) .

وفي طياته تهديد خفي بعاقبة الانتظار ، بعد أن ينفض الرسول – ﷺ – يده من أمرهم ، ويدعهم لمصيرهم المحتوم .

وتختتم السورة على هذا الإيقاع العميق ، بعد تلك الجولات والإيحاءات والمشاهد والمؤثرات ، وخطاب القلب البشري بشتى الإيقاعات التي تأخذه من كل جانب وتأخذ عليه كل طريق "[١] .

وبهذا ينتهي الكلام على هذه السورة المليئة بالدروس والعبر والعظات .

نسأل الله الكريم أن ينفعنا بهذا الكتاب العظيم ويثبتنا عليه ويجعله حجة لنا يوم لقائه إنه سميع مجيب .

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

*****

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٥٢٣ .

خاتمة البحث

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

بعد هذا التطواف في ثنايا هذه السورة العظيمة أخلص بنتائج منها :

عظم هذه السورة وأخصيتها بالقراءة فجر الجمعة لحكم عظيمة .

تنوع مباحث هذه السورة وموضوعاتها .

التركيز في السور المكية على القضايا العقدية من محاجة المشركين وإثبات نزول القرآن من الله عز وجل وتقرير المبدأ والمعاد ونحو ذلك .

بيان شدة عناد المشركين مع وضوح الأدلة الكونية في أنفسهم وما حولهم ورغم قوة البرهان الشرعي أمامهم .

الاحتجاج بخلق بني آدم على إمكانية البعث بعد الموت .

ثناء الله عز وجل على المؤمنين المتقين ووعدهم بالثواب العظيم ، وفي المقابل ذم الله عز وجل للمعاندين والوعيد لهم بالعقاب الجسيم .

إثبات عذاب القبر من خلال القرآن الكريم .

تسلية النبي ﷺ وأتباعه الدعاة بذكر نماذج من الدعاة الصابرين مثل موسى عليه السلام .

بيان سعة حلم الله عز وجل وإمهاله للمعاندين حيث ينظرهم سبحانه إلى أن يشاء .

أن القرآن العظيم معجزة النبي – ﷺ – الخالدة إلى يوم القيامة فلا يزال العلماء والمفسرون والباحثون ينهلون من معينه المتجدد وأفقه الواسع .

فهرس المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم
٢. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن لمحمد الأمين الشنقيطي : ت١٣٩٣هـ، ط على نفقة الأمير أحمد بن عبد العزيز ١٤٠٣هـ .
٣. أيسر التفاسير لكلام العلي القدير : لأبي بكر الجزائري ، الطبعة الرابعة .
٤. البحر المحيط : لأبي حيان الأندلسي ، ت٧٥٤هـ ، ط : دار الفكر الثانية ١٤٠٣هـ .
٥. تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب : لأبي حيان الأندلسي ، تحقيق : سمير المجذوب، ط : المكتب الإسلامي ، الأولى ١٤٠٣هـ .
٦. تذكرة الأريب في تفسير الغريب : لأبي الفرج ابن الجوزي ، تحقيق : د. علي حسين البواب . ط : دار المعارف ، الرياض ، الأولى ١٤٠٧هـ .
٧. تفسير التحرير والتنوير : للطاهر بن عاشور ، ط : دار سحنون ، تونس .
٨. تفسير غريب القرآن : لابن قتيبة ت٢٧٦ ، تحقيق : أحمد صقر ، ط : دار الكتب العلمية ١٣٩٨ .
٩. تفسير ابن كثير : للحافظ أبي الفداء ابن كثير ت٧٧٤هـ ، ط : دار الأندلس ١٩٨٣ .
١٠. التيسير في القراءات السبع : لأبي عمرو الداني ت٤٤٤ ، تصحيح : أوتو برتزل ، نشر دار الكتاب العربي ، الطبعة الثالثة ١٤٠٦هـ .
١١. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان : للعلامة السعدي ت١٣٧٦هـ ، تحقيق : د. عبد الرحمن اللويحق ، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ .
١٢. الجامع لأحكام القرآن : لأبي عبد الله القرطبي ت٦٧١ ، ط : دار إحياء التراث العربي .
١٣. جامع البيان عن تأويل آي القرآن : للإمام الطبري ت٣١٠هـ ، ط : دار الفكر ١٤٠٥هـ .
١٤. الجامع لشعب الإيمان : للإمام البيهقي .
١٥. حاشية الروض المربع : جمع : عبد الرحمن بن قاسم ت١٣٩٢ ، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ .
١٦. حجة القراءات : للإمام أبي زرعة عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة ت ٤٠٣هـ، ط . مؤسسة الرسالة.
١٧. ديوان الأخطل : جمع وشرح : مهدي محمد ناصر الدين ، ط : دار المكتبة العلمية بلبنان ، الأولى ١٤٠٦هـ .

١٨. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني : للآلوسي ت١٢٧٠هـ ، ط : إحياء التراث العربي ، بيروت .

١٩. كتاب السبعة في القراءات :للإمام ابن مجاهد ، تحقيق :د. شوقي ضيف ، دار المعارف ، الطبعة الثالثة .

٢٠. سجود التلاوة وأحكامه : للدكتور صالح اللاحم ، نشر : دار المجتمع .

٢١. سنن الترمذي (الجامع الصحيح) : لأبي عيسى الترمذي ٢٩٧ ، تحقيق : أحمد شاكر ورفيقيه ، ط : شركة البابي الحلبي ، الثانية ١٣٩٥هـ .

٢٢. سنن الدارمي : لأبي محمد الدارمي ت٢٥٥هـ ، تحقيق : عبد الله هاشم يماني نشر حديث أكاديمي باكستان ١٤٠٤هـ .

٢٣. سنن أبي داود : لأبي داود السجستاني ت٢٧٥هـ ، تحقيق : عزة عبيد الدعاس ، نشر: دار الحديث بسوريا ، الطبعة الأولى ١٣٨٩هـ .

٢٤. سنن ابن ماجة : للإمام ابن ماجة ت٢٧٥هـ ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ، ط : دار الفكر ، بيروت .

٢٥. سير أعلام النبلاء : لأبي عبد الله الذهبي ت٧٤٨هـ ، ط : مؤسسة الرسالة .

٢٦. شرح صحيح مسلم : للنووي ت ٦٧٦ ، ط : دار إحياء التراث ، الثانية ١٣٩٢هـ .

٢٧. الشرح الممتع على زاد المستقنع : للشيخ العثيمين ت١٤٢١هـ ، تحقيق : عمر الحفيان ، ط : دار ابن الجوزي ، الأولى ١٤٢٢هـ .

٢٨. صحيح البخاري : للإمام البخاري ت٢٥٦هـ ، ط : المكتبة الإسلامية ، استمبول .

٢٩. صحيح الجامع الصغير وزيادته : للألباني ، ط : المكتبة الإسلامية ، الثالثة ١٤٠٢هـ .

٣٠. صحيح ابن حبان : للإمام محمد بن حبان البستي ، ط. الأولى ، دار الكتب العلمية .

٣١. صحيح مسلم : للإمام مسلم ت٢٦١ ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ، ط : دار إحياء التراث ، بيروت .

٣٢. فتح الباري بشرح صحيح البخاري : للحافظ ابن حجر العسقلاني ت٨٥٢هـ، ترقيم : محمد فؤاد عبد الباقي ، نشر : مكتبة الرياض .

٣٣. فتح القدير من علم التفسير : لمحمد بن علي الشوكاني ت١٢٥٠ ، ط : دار الفكر .

٣٤. في ظلال القرآن : لسيد قطب ، ط : دار إحياء التراث بلبنان ، السابعة ١٣٩١هـ .

٣٥. مجاز القرآن : لأبي عبيدة ت٢١٠هـ، تحقيق: محمد فؤاد سزكين ، ط: مؤسسة الرسالة ، ١٤٠١هـ .

٣٦. مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية : ت٧٢٨هـ، جمع : عبد الرحمن بن قاسم ، ط : الملك فهد بن عبد العزيز .

٣٧. المحلى : لابن حزم الظاهري ت٤٥٦هـ، تحقيق : أحمد شاكر ، ط : دار التراث، القاهرة .

٣٨. المستدرك : للإمام الحافظ أبي عبد الله الحاكم النيسابوري ، ت ٤٠٥ ، ط. دار المعرفة .

٣٩. المسند : للإمام أحمد ، ط : المكتب الإسلامي .

٤٠. مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور : لبرهان الدين البقاعي ت٨٨٥هـ ، تحقيق : د . عبد السميع حسنين ، ط : مكتبة المعارف ، الرياض ، ١٤٠٨هـ .

٤١. معالم التنزيل : للبغوي ت٥١٦هـ ، ط : دار المعرفة ، الثانية ١٤٠٧هـ .

٤٢. معاني القرآن وإعرابه : لأبي إسحاق الزجاج ت٣١١هـ ، تحقيق : عبد الجليل عبده شلبي ، ط : عالم الكتب ، الأولى ١٤٠٨هـ .

٤٣. المعجم المفهرس لألفاظ الحديث : لمجموعة من المستشرقين ، ط : مكتبة بريل في ليدن سنة ١٩٣٦ .

٤٤. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : لمحمد فؤاد عبد الباقي ، ط : المكتبة الإسلامية ، استانبول ١٩٨٤ .

٤٥. معجم المؤلفين : لعمر رضا كحالة ، نشر : مكتبة المثنى ودار إحياء التراث ، بيروت .

٤٦. المغني : لموفق الدين ابن قدامة ت٦٢٠هـ ، تحقيق : د. عبد الله التركي و د. عبد الفتاح الحلو ، نشر : هجر بالقاهرة ، الأولى ١٤٠٧هـ .

٤٧. المفردات في غريب القرآن : للراغب الأصفهاني ت٥٠٢ ، تحقيق : محمد سيد كيلاني ، ط : دار المعرفة بلبنان .

٤٨. الموسوعة الحديثية / مسند الإمام أحمد بن حنبل ت ٢٤١ ، ط ١ مؤسسة الرسالة .

٤٩. النبأ العظيم : للدكتور محمد عبد الله دراز ، الطبعة الرابعة ١٣٩٧هـ .

٥٠. النشر في القراءات العشر : لشمس الدين ابن الجزري ت٨٣٣هـ ، ط : دار الكتب العلمية بلبنان .

*****